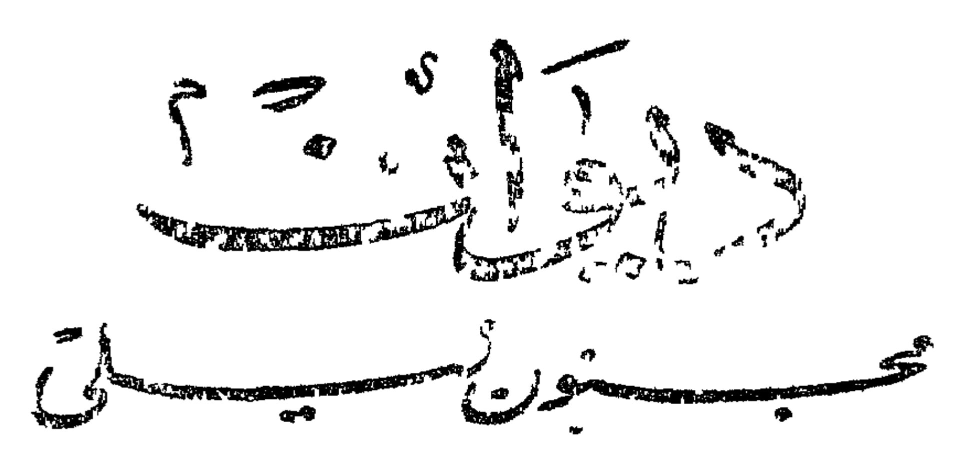


[illegible] عامري
أخباره [illegible] مع ابنة عمه
ليلى العامرية

هي قصة الحب العذرية الخالدة التي تصور لك الحب البدوي الطاهر
[illegible] مع تصوير [illegible] والإخلاص [illegible]
[illegible] أحلى صورة من [illegible]
[illegible]

[illegible]

مجنون ليلى

كان فى زمن خلافة عبد الملك بن مروان رجل من أهل المفاخر وأصحاب المناصب والمآثر يقال له الملوح بن مزاحم ، وكان من سادات بنى عامر وله من الأولاد الذكور ثلاثة أقمار كأنهم البدور وكل بالأدب مذكور ومشهور ، ومنهم قيس وهو صاحب هذا الديوان الذى اشتهر بالعشق وحسن السريرة وكان أصغر إخوته عمراً وأعلاهم همة وأرفعهم قدراً ، وأفصحهم كلاماً وأجودهم نظماً ونثراً وأعلمهم بالأدب وأخبار العرب وكان مع هذه الأوصاف جميل المنظر عالى الهمة فصيح الكلام طويل القوام كأنه البدر التمام ، حافظ زمام الاحتشام قد نطق بالشعر وهو ابن سبعة أعوام وكان أعز أخوته عند أبيه نظراً لأوصافه وحسن مساعيه لأنه قد حاز جميع الصفات البديعة و حبيبته هى ليلى بنت المهدى تتصل بنسبه فى كعب بن ربيعة وكنيتها أم مالك بدليل قوله :

تكاد بلاد الله يا أم مالك　　بما رحبت يوماً على تضيق

وكانت سمراء اللون قصيرة القامة فصيحة الكلام وعلى خدها الأيمن شامة وكان سبب عشقه لها أنه ركب يوماً على ناقة له وخرج من الحى على سبيل النزهة والتسيير وعليه حلتان من الديباج والحرير فأقبل على بعض الغدران فوجد عليه جماعة من البنات والنساء فحياهن بالسلام وتكلم معهن بأفصح كلام فأعجبهن غاية الإعجاب واستدعينه للحديث والخطاب وكانت ليلى من جملتهن فنزل وجلس معهن وجعل يحادثهن ويقلب طرفه عليهن حتى وقعت عينه على ليلى فافتتن بها واندهش وخفق فؤاده وارتعش وقال لهن هل عندكن شىء من الطعام ، قالت لا يا ابن الكرام ، فعمد إلى الناقة فنحرها وأضرم النار وأخذ يشاغلها بالحديث والأخبار ومناشدة الأشعار وهو شاخص فيها دون باقى النساء ثم قال لها أتأكلين الشواء قالت نعم أيها السيد المحترم ، فطرح الناقة على الجمر فى الحال وقد اعتراه الخبال وتضعضعت منه الأحوال من شدة الوجد والبلبال ، فقالت له ليلى انظر

إلى اللحم هل تضج أم لا ، فتقدم إلى الجمر وقبضه بكلتا يديه وسقط على وجه الأرض مغشياً عليه فأكل الجمر لحم راحتيه .

فلما رأته على تلك الحال مدت إليه ذراعها وشدت يده بهدب قناعها وعلمت أنه غرق فى بحر هواها وقد اشتهاها وتمناها ، فتغير لون وجهها من شدة الحياء وأقام قيس معهن كل ذلك اليوم إلى المساء ثم ذهب وهو على غير الاستواء من تباريح الوجد والهوى ، فلما جن الليل أخذ فى الافتكار وصرف ليلة بالبكاء ومناشدة الأشعار فمن ذلك قوله :

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا ... لى الليل هزتنى إليك المضاجع

أقضى نهاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعنى الليل الذى هو جامع

إذا مر يوم من حياتى ولا أرى ... خيالك ياليلى فعمرى ضائع

تضيق على الأرض حتى كأنى ... من الصبر فى سجن فما أنا صانع "

(قال الراوى) فلما كان ثانى الأيام استدعته للمنادمة والكلام وقد داخلها الحب والغرام لأنها كانت مغرمة بأحاديث الناس وأشعارهم وكان هو عارفاً بأيام العرب وأخبارهم فتمكنت بينهما المحبة والمودة حتى لم يستطع فراقها ساعة واحدة هذا ، هو المشهور فى كيفية عشقهما حسب ماذكرناه ، وزعم البعض أن سبب وقوع الهوى بينهما خلاف ما أوردناه وهو أنهما قد كانا صغيرين يرعيان الغنم بدليل قوله :

تعشقت ليلى وهى غر صغيرة ... ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صغيرين نرعى البهم ياليت إننا ... إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

فتحابا ومضى على ذلك برهة وهما بأطيب عيش ونزهة ثم حجبت عنه كما سيأتى الخبر وجرى عليه مالم يجر على قلب بشر ، وعلى كلتا الحالتين عرف كل منهما ماعند الآخر ، وكان قيس يذهب فى كل يوم إلى بيتها فيقف عنده حتى يراها ، فيشكو إليها ماعنده من حبها وهواها ، ولم يكن دأبه إلا البكاء

والانتحاب ومناشدة الأشعار فى الليل والنهار ، وأقام أياماً لايلذ له حال ولا ينعم له بال حتى اعتراه السقام من شدة الوجد والغرام .

(قال الراوى) ولما كان ذات يوم سألها قيس أمراً من الأمور لينظر هل له فى قلبها مثل الذى فى قلبه فمنعته حاجته وأظهرت النفور وكان قصدها بذلك امتحان الصحبة لترى ماعنده من المحبة فقال لها لقد أخلفت ماعهدته فيك ثم اصفر لون وجهه وكاد أن يتفطر وأنشد يقول :

مضى زمن والناس يستشفعون بى ‏ فهل لى إلى ليلى العداة شفيع
يضعفنى حبك حتى كأننى ‏ من الأهل والمال التليد نزيع
إذا ما نهانى العاذلون بحبها ‏ أتت كبدى مما أجن أطيع
وكيف أطيع العاذلين وحبها ‏ يؤرقنى والعاذلون هجوع

ولما سمعت شعره بكت وأنشدت تقول :

كلانا مظهر للناس بغضاً ‏ وكل عند صاحبه مكين
وأسرار الملاحظ [illegible] ‏ [illegible] لا يبين
وكيف يموت [illegible] ‏ [illegible] فى النفس تضمره العيون
فطب نفساً بذلك وقر [illegible] ‏ [illegible] هواك فى قلبى [illegible]

[illegible] ما حوى [illegible] أنشد وقال :

أحبك [illegible] ‏ [illegible] من وجد على [illegible]
[illegible] مع الغزلان [illegible] ‏ [illegible] وأما [illegible]
[illegible] لا [illegible] ‏ [illegible] تقضى [illegible] يكون

[illegible] الحب [illegible] الأحر
[illegible] ليلا [illegible] يقترض [illegible]
[illegible] ذلك [illegible] حجة
[illegible] فى إناء [illegible]

تشكو ماله عندها من الشوق إلى رؤياه ، وأنها لا تميل إلى أحد سواه . فلما سمع كلامها طاب قلبه وزال غمه وكربه هذا وقد انتهيا بالحديث مع بعضهما البعض حتى امتلأ الإناء وصار السمن يقطر على الأرض ، وما زالا يتحدثان نحو ساعة من الزمان إلى أن غرقت أرجلهما بالسمن ولا يعلمان ، وكان أبوها قد استبطأها فصاح عليها وناداها فلم تنتبه إليه ولا ردت عليه ، فخرج ليكشف الخبر وقد أنكر أمرها فوجدهما على تلك الحالة المتقدم ذكرها ، فاستعظم ذلك الأمر ثم منعها الزيارة فى الليل والنهار وحجبها عنه خوفاً من الفضيحة والعار ، فكان يغتنم غفلة الرقيب ويجتمع بها فيطفى ما بقلبه من نار اللهيب . فلما بلغه ذلك شكاه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان وأعلمه بذلك الشأن . فكتب إلى عامله الذى كان والياً على القوم يأمره بقتله إذا هو زارها بعد ذلك اليوم ، ولما قرأوا عليه الكتاب ووقف على حقيقة الخطاب فتنهد وتحسر وأنشد وقال :

لئن حجبت ليلى وآلى أميرها على يميناً جاهداً لا أزورها

على غير شىء غير أنى أحبها وأن فؤادى عند ليلى سميرها

ولما يئس من زيارتها أخذه القلق والوسواس حتى أشرف على زوال عقله وصار مثلا بين الناس ، فأقبل عليه أبوه وبنو عمه وإخوته ومن يلوذ به من أهله وخلانه وقالوا له ياقيس اتق الله وأعرض عن هذه الجارية واسلها واعلم أنك إن دمت على هذه الحال أتلفت مهجتك فى هواها ونساء العرب كثيرات وفيهن من تضاهى البدور الزاهرات فأحب من هى أحسن منها وإنك فى غنى عنها فقد هتكت حالك بين الأهل والخلان وصرت مثلا بين القبائل والعربان . فلما ألحوا عليه بالكلام قال دعونى ياقوم من العتب والملام دين لا أختار امرأة عليها ولا أميل إلا إليها ثم أنشد :

تقول العدا لا بارك الله في العدا ... لقد قصر عن ليلى ورثت [illegible]
ولو أصبحت ليلى تدب على العصا ... لكان هوى ليلى جديداً أوائله

فعند ذلك ساروا جمعاً وأتوا أبا ليلى وحدثوه بالقصة وأعلموه [illegible]
وقع [illegible] قيس من الغصة وسألوه القرابة وأقسموا عليه باسم الله أن [illegible]
يعطيها إياه وأحضروه [illegible] التي هي [illegible] ودفعوا له مائة ناقة [illegible]
[illegible] له أحد غير [illegible]
[illegible] (قال الراوي) [illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible] صدره من [illegible]
[illegible] الأحوال [illegible] ذلك
[illegible]
[illegible] الحمق والأرام وكيف
[illegible] الماء ثم جعل يرش التراب على رأسه وقدميه [illegible]

أن وقع مغشياً عليه ، فقدمت ورشت له الماء وقبلته بين عينيه ، فلما أفاق أنشد وقال .

ألا أيها القلب اللجوج المعذل … أفق عن طلاب الغيد إن كنت تعقل

[illegible] قد أفاق العاشقون وإنما … تماديك فى ليلى ظلام مضلل

[illegible] تصبر واستعن بخلاله … فصبرك فيما لا يدانيك أجمل

ألا كل ذى ود علمت مكانه … وأنت بليلى مستهام موكل

[illegible] فؤادى ما اجتررت ملامة … إليك ولكن أنت باللوم تعجل

[illegible] نفسى بالحديث وبالمنى … لعل إلى أيام ليلى تعلل

[illegible] الله من باح الجمل [illegible] … فقلت أجل حاشاك إن كنت تعقل

[illegible] بالله يا ليل إننى … [illegible] وفى بالعهود وأوصل

[illegible] أذنبت ذنباً علمته … ولا ذنب لى ليلى فصفحك أجمل

[illegible] فى نار منى خصومة … وإن شئت قتلا إن حكمك أعدل

[illegible] طال حتى مللته … [illegible] إذا ما جن الليل [illegible]

[illegible] … وعيناه [illegible]

[illegible] … [illegible]

[illegible] شعره اغرورقت عيناه بالدموع [illegible] أن [illegible] [illegible] قلب [illegible] وهو يبكى و[illegible] عطف عليه الحال [illegible]

[illegible] المشعوف [illegible] … [illegible]

[illegible] المهجور والهائم الذى … [illegible] والحليوب [illegible]

[illegible] … وأشرب كأساً [illegible]

[illegible] ليلى فؤادى [illegible] … [illegible] تقضى ما تحب [illegible]

[illegible] أن [illegible] … كلانا [illegible] باق ولا [illegible]

[illegible] ترى [illegible] … فبات [illegible] برق و[illegible]

صريع من الحب المبرح والهوى ... وأى فتى من علة الحب يسلم

بكى لى يا ليلى الفؤاد وإنه ... ليبكى ما يلقى الفؤاد ويكتم

[illegible] مالاقى جميل بن معمر ... كوجدى بليلى لا ولم يلق مسلم

ولم يلق قابوس وقيس وعروة ... ولم يلقه قبلى فصيح وأعجم

صبا يوسف واستشعر الحب قلبه ... ولا كاد داود من الحب يسلم

وبشر وهند ثم سعد ووامق ... وتوبة أضناها الهوى المتقسم

وهاروت لاقى من جوى الحب علة ... وماروت فاجأه البلاء المصمم

ولم يخل منه المصطفى سيد الورى ... أبو القاسم الزاكى النبي المطهر

أبيت صريع الحب دام من الهوى ... ودمعى على جسمى يموج ويسجم

ولولا طروق الليل أودت بنفسه ... منعمة اللحظين تبرى وتسقم

إذا هى رادت فى الهوى زادنى الهوى ... فلا قلبه يسلو ولا هى ترحم

أعارت أنفاس الصب بك صبوة ... لها بين جنبيه سعير مضرم

ألا أن دمع الصب عما يجنه ... وإن لم يفه يوماً به متكلم

لسان عيى فى الهوى [illegible] ... ودمعى فصيح فى الهوى وهو أعجم

وكيف يطيق الصب كتمان سره ... وهل يكتم الوجد امرؤ وهو مغرم

قال الراوى: وأقام قيس بعد ذلك أياماً وهو يكابد آلام الفراق وفى ذات يوم ركب ناقته وصار طالباً زيارة ليلى فى ذلك المكان، فوجد الحى خالياً من أسكانه لا يسمع فيه صوت إنسان سوى صياح البوم ونعيق الغربان فجلس بعض الى مواقد النيران وينظر فى تقلبات الزمان، فعند ذلك زادت [illegible] قفراً وبكى بكاء مراً وأنشد:

[illegible] ... [illegible] بليلى والكواكب [illegible]

[illegible] ... [illegible] فى سائر الدهر [illegible]

[illegible] ... [illegible] يبكيها [illegible] يسجع

[illegible] ... فيا للعدا من صبوة كيف أصنع

أأتبع ليلى حيث راحت وخيمت ... وما الناس إلا آلف ومودع
فإن يك جثمانى بأرض بعيدة ... فإن فؤادى عندك الدهر أجمع
ألا تتقين الله فى قتل عاشق ... له كبد حرى عليك تقطع
غريب مشوق مولع بدياركم ... وكل غريب الدار بالشوق مولع
فأصبحت مما أوقع الدهر موجعاً ... وكنت لريب الدهر لا أتضعضع
قنعت بلحظ منك ليلى وإنما ... ينال المنى من كان باللحظ يقنع
أبيت بروحاء الطريق كأننى ... أخو خبل أوصاله تتقطع

(قال الراوى) فبينما هو على تلك الحال وإذا براع يرعى غنمه فى ذلك الحى فقصده حتى وصل إليه فسلم عليه وسأله عن أخبار القوم فقال له: رحلوا إلى جبل توباد فى صباح ذلك اليوم ، فسار وهو منزعج الفؤاد حتى أقبل على جبل توباد وكان ذلك الوقت فى آخر النهار فوجده خالياً من الرجال ليس فيه إلا النساء والبنات الأبكار ، وبلغ ليلى قدومه من بعض الجوارى فداخلها الفرح والاستبشار فخرجت إليه مسرعة وهى لا تصدق أن تراه ، فلما وصلت إليه سلمت عليه فابتهج وانشرح وكاد يطير من الفرح وأخذ كل منهما يشكو ما هو فيه من ألم الفراق والنوى وتباريح الوجد والجوى ، ثم قالت له فى آخر الكلام كيف كان صبرك عنى يا قيس فى هذه الأيام ، فقال لها والله يا منية القلب والروح التى بين جنبين ليس لى عنك صبر ولا سلوان وقد أقلقنى الوجد والهيمان من كثرة الأفكار وسهر الليل والنهار حتى لم يبق لى هدوء ولا اصطبار ولا أقمت فى مكان ولى فيه قرار وما تركت زيارتك إلا خوفاً عليك من الأعداء اللئام الذين ليس لهم عهد ولا ذمام ، فإن زيارتك تنجلى همومى وتنقضى غمومى ، وينشرح صدرى وتصفو مرآة فكرى ثم بكى وأنشد يقول :

أيا نسمة الدين يقدح فى صدرى ... ونار الأسى ترمى فؤادى بجمر
والله ما أنساك ما هبت الصبا ... وما ناحت الأطيار فى وضح الفجر

وما نطقت بالليل سارية القطا   وما صدحت فى الصبح غادية الكدر
وما لاح نجم فى السماء وما بكت   مطوقة شجواً على فنن السدر
وما طلعت شمس لدى كل شارق   وما هطلت عين على واضح النحر
فأقسم لا أنساك ما ذر كوكب   وما خب آل فى معلمة قفر

فلما سمعت منه هذه الأبيات بكت وضمته إلى صدرها وأنشدت :

ولقد أردت الصبر عنك فعاقنى   حلول بقلبى من هواك قديم
وينفى جفاك النوم من كل لذة   ويقلقنى ذكـــراك وهو عظيم

ثم ودعها وسار خوفاً من قدوم الرجال وفى رجوعه إلى أهله أنشد وقال :

حلا ذكر الأحبة فى فؤادى   فهمت من الغرام بكل واد
وقد باحت بأسرارى دموعى   وجفنى قد جفا طيب الرقاد
وكم ناديت بين خيام ليـلى   وكم فى حبها مثلى ينادى
أنا المضنى فجودى لى بوصـل   فقد زاد السقام إلى السهاد
وكم أجريت يوم البين دمعـاً   على الخدين كالسحب الغوادى
فما أحلى التهتك فى حماها   حماها الله من كيد الأعادى
عسى بالوصل أحظى قبل موتى   وأفرح باللقا بعد البعـاد

﴿ وقال أيضاً ﴾

إذا نظرت نحوى تكلم طرفها   فجاوبها طرفى ونحن سكوت
ولو خلط السم المـذاب بريقها   وأسقيت منه نهلة لبريت

﴿ وقال أيضاً ﴾

ولو شهدتنى حين تأتى منيتى   جلا سكرات الموت عنى كلامها
فياليتنا نحيا جميعاً وإن نمت   تجاور فى الهلكى عظامى عظامها

(قال الراوى) وجد قيس فى قطع الطريق وهو مسرور بذلك التوفيق حتى أقبل إلى الديار والشوق فى قلبه كلهيب النار، فلما دخل الى الخيام قدمت له أمه شيئاً من الطعام فأبى ولم يأكل ولا عرفت عينه المنام إلى أن مضى ليله

في البكاء والنواح إلى أن بدت غرة الصباح ، فلما رآه أبوه على تلك الحال وقد تغير جسمه واعتراه الهزال رثى لحاله وخاف من انزعاج باله وقال ياولدى ويا مهجة كبدى ارجع عن هذا الأمر واقبل النصيحة فقد هتكت نفسك وصرت مثلا بين الورى وأحدوثة لكل من يسمع ويرى ، فكم قد نصحتك وأنت لم تسمع وأردك فلم ترجع وكل ذلك من أجل جارية من بنات العرب وهى دونك فى الحسب والنسب ، وأنا أشير عليك الآن ألا تذكرها بشفة ولا بلسان فإن حديثك قد شاع بين جميع العربان واشتهر فى كل مكان ، فاذكر الله وتب إليه مما أنت عليه . فلما سمع من أبيه ذلك الخطاب تغلب عليه الحزن والاكتئاب وقال له كلما حدثتنى بهذا الكلام ازداد بى العشق والغرام ثم هاجت به الأشواق وغلبت عليه غصة الفراق ، فبكى وانتحب وفاض دمعه وانسكب ، واشتعل قلبه والتهب وأنشد يقول :

وكم قائل لى اسل عنها بغيرها ... وذلك من قول الوشاة عجيب
فقلت وعينى تستهل دموعها ... وقلبى بأكناف الحبيب يذوب
لئن كان لى قلب يذوب بذكرها ... وقلب بأخرى إنها لقلوب
فياليل جودى بالوصال فإننى ... بحبك رهن والفؤاد كئيب
فلا تتركى نفسى شعاعاً فإنها ... من الوجد قد جادت عليك تذوب
وألقى من الوجد المبرح سورة ... لها بين جلدى والعظام دبيب
وأنى لأستحييك حتى كأنما ... على بظهر الغيب منك رقيب

(قال الراوى) فبكى أهله رحمة له وطلبوا من الله أن يعافيه مما ابتلاه ، فلما سمع كلامهم تنفس الصعداء وتنهد وأشار إليهم وأنشد :

لقد لامنى فى حب ليلى أقاربى ... أبى وابن عمى وابن خالى وخاليا
يقولون ليلى أهل بيت عداوة ... بنفسى ليلى من عدو وماليا
أرى أهل ليلى لا يريدون بيعها ... بشىء ولا أهلى يريدونها ليا

فليت نسيم الريح أدى تحيتى ... إليها وما قد حل بى ودهانيا

فيا عجباً من يلوم على الهوى ... فتى دنفاً أمسى من الصبر عاريا

وهيهات أسلو من الوجد والهوى ... وهذا قميصى من الحزن باليا

معذبتى لولاك ما كنت هائما ... أبيت سخين العين حيران باكيا

أبيت ضجيع الهم ما طعم الكرى ... أنادى إلهى قد لقيت الدواهيا

بساحرة العينين كالشمس وجهها ... يضىء سناه فى الدجى متساميا

خليلى هدا لى فراشى وارفعا ... وسادى لعل النوم يذهب ما بيا

وإن مت من داء الصبابة بلغا ... نتيجة ضوء الشمس منى سلاميا

(وقال أيضاً)

ما بال قلبك يا مجنون قد هلعا ... فى عشق من لا ترى فى وصلها طمعا

يقول صحبى ودمع العين منحدر ... سيلا على الخد هطالا ومندفعا

طالما أبكى ولم أسمع بمنزلة ... هذا البكاء لصب مرجع فجعا

فقلت كفوا عن القلب ويحكم ... لو كان صخرة صماء لا نصدعا

طوبى لمن أنت يا ليلى قرينته ... لقد نفى الله عنه الهم والوجعا

لما قرأت كتاباً منك يبلغنى ... إلا ترقرق دمع العين واندفعا

دعوا إلى هجرها قلبى فيتبعنى ... حتى إذا قلت هذا صادق نزعا

لا يستطيع نزوعاً عن مودتها ... أو يصنع الوجد فيها غير ما صنعا

كم من وفى لها قد كنت أتبعه ... ولو صحا القلب عنها كان لى تبعا

تزيدنى كلفا فى الحب إن منعت ... أحب شىء إلى الإنسان ما منعا

وهاتف من فنان الأيك أزعجنى ... بصوته فى ظلام الليل حين دعا

كأن عينيه من حسن احمرارهما ... فصان من حجر الياقوت قد قطعا

يدعو حمامته طير وقد هجعت ... والله ما هجعت عين وما هجعا

كأنه راهب فى رأس صومعة ... يتلو الزبور ونجم الصبح قد طلعا

أو قس دير تلا مزماره سحرا ... ما زال مذ كان طفلا يسكن البيعا
فالريح تخفضه حيناً وترفعه ... قد كان يخفضها طوراً ويرتفعا
فقلت ياطير ماهذا البكاء وقد ... قل العزاء وأبدى القلب ماجزعا
إن طرت طار معي كي لا يفارقني ... وإن أراد وقوعاً قلبه وقعا
وقد دعاني به ريب المنون ولم ... ترجع إلى وكل الطير قد رجعا
وكل إلف يبكي إلف صاحبه ... عند الفراق بوجد قط ما جمعا
وكنت أبكي ونار الوجد تقلقني ... حتى رأيت عمود الصبح قد سطعا
فالحمـــد لله أبكاني وأضحكني ... والحمد لله شكراً للذي صنعا
احفظ صديقك لا تقطع مودته ... لا بارك الله فيمن خان أو قطعا
إن المنازل تبنى بعد ما خربت ... وليس يوصل رأس بعد ماقطعا
إزرع جميلا ولو في غير موضعه ... فلا يضيع جميل أينما زرعا

(وقال أيضا)

ولو أن ما بي بالحصى فلق الحصى ... وبالريح لم يسمع لهن هبوب
ولو أن ما بي بالجبال لهدمت ... وكاد جلاميد الصخور تذوب
تذكرني ليلى على بعد دارها ... وليلى قتول للرجال خلوب
فويلي على العذال ما يتركونني ... بغمي أما في العاذلين لبيب
فإن عشت لا أبغي سواك وإن أمت ... فما موت مثلي في هواك عجيب
ولو أنني أستغفر الله كلما ... ذكرتك لم تكتب علي ذنوب
قدومي على عهدي ولست بزائل ... عن العهد منكم ما أقام عسيب

(قال الراوى) وما زال قيس على مثل هذا الشأن مدة من الزمان ، وهو يكابد الوجد والهيمان ، وقد تغلبت عليه الهموم والأحزان وكان كثيراً مايجول في الفلوات يندب ندب الثاكلات ، ويمر بين أشجار الغضا ويتوغل في الفلا والفضاء حتى صار في حالة الذل والويل من كثرة البكاء

وسمر الليل واتفق أنه مر يوماً فى بعض الكثبان فرأى أن رجلا نصب شركاً لصيد الغزلان، فدنا منه وحياه بالسلام وقال له عندك شىء من الطعام فقال إنى بعيد الديار مسافة نصف نهار ، وقد نصبت أشراكى فى هذه الربى فاصبر قليلا واطرد على الظبا ، فان اصطدنا بلغنا المراد وسددنا رمق الفؤاد ، لأنى من نحو يومين ما استطعمت بزاد ، فبينما هو عنده إذ وقعت بالشرك ظبية فوثب قيس إليها وقبلها بين عينيها ثم أطلقها وأشار يقول :

أيا شبه ليلى لا تراعى فإننى ... لك اليوم من دون الوحوش صديق
وياشبه ليلى لو توقفت ساعة ... عليها سحاب هاطل وبروق
وياشبه ليلى لو توقفت ساعة ... لعل فؤادى من جواه يفيق
أقول وقد أطلقتها من وثاقها ... فأنت لليلى إن شكرت طليق
فعيناك عيناها وجيدك جيدها ... سوى أن عظم الساق منك دقيق
تكاد بلاد الله يا أم مالك ... بما رحبت يوماً على تضيق
تتوق إليها النفس ثم أردها ... حياء ومثلى بالحياء خليق
ولو تعذبين الغيب أيقنت أننى ... حبيب وإنى للحبيب مشوق
أروم سلو النفس عنك ومالها ... إلى أحد إلا إليك طريق

فاستشاط الصياد غضباً وتغيرت منه الأحوال واعتراه الانزهال ، وقال ياهذا ماهذه الفعال التى لم يسبق إليها أحد من الجهال ، فقد من الله علينا بما كنا نتمناه ، فأحرمتنا إياه ، فقال له قيس وقد اشتد به جواه وعظم مصابه وبلاه ، لا تلمنى فإن عينيها تشبه عينى من أهواه ، ثم تركه وسار يجول فى تلك القفار ، وإذا به يرى ظبية أخرى فأسرع نحوها وقبض عليها ومسح التراب عن وجهها وقرنيها وبعد ذلك أطلقها وأشار يقول :

اذهبى فى حراسة الرحمن ... أنت منى فى ذمة وأمان
لا تخافى ولا تخافى بسوء ... ماتغنى الحمام فى الأغصان

(وقال أيضاً)

أقول لظبى مربى وهو رائع ... أأنت أخو ليلى فقال يقال

أيا شبه ليلى إن ليـــلى مريضة ... وأنت صحيح إن ذا لمحال

(قال الراوى) وكانت ليلى قد مرضت مرضاً شديداً، فلما بلغه الخبر خفق فؤاده وتكدر، وأخذه القلق والضجر، وأنشد يقول:

يقولون ليلى بالعراق مريضة ... فمالك لاتضنى وأنت صديق



(قيس وليلى يتناجيان) بريشة أمير عباس

سقى الله مرضى بالعراق فإنني ... على كل مرضى بالعراق شفيق

فإن تك ليلى بالعراق مريضة ... فإنى فى بحر الغرام غريق

أهيم بأقطار البلاد وعرضها ... ومالى إلى ليلى الغداة طريق

كأن فؤادى فيه نار تناوحت ... وفيه لهيب ساطع وبروق

إذا ذكرتها النفس ماتت صبابة لها زفرة قتالة وشهيق
سبتني شمس تخجل الشمس نورها ويكسف ضوء البدر وهو شروق
غرابية الفرعين بدرية النسا ومنظرها بادى الجمال أنيق
وقد صرت مجنوناً من الحب هائماً كأنى عان فى القيود وثيق
برى حبها جسمى وقلبى ومهجتى فلم يبق إلا أعظم وعروق
فلا تعذلوا بل إن هلكت ترحموا على فقد النفس ليس يعوق
وخطوا على قبرى إذا مت أسطراً قتيل لحاظ مات وهو عشيق
إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى بليلى ففى قلبى جوى وحريق

(وقال أيضاً)

ألا إن ليلى بالعراق مريضة وأنت خلى البال تلهو وترقد
فلو كنت يامجنون تضنى من الهوى لبت كما بات السليم المسهد

(قال الراوى) ومر رجل ذات يوم بليلى وهى واقفة على باب حيها وهى قد تعافت من عياها ، فقالت له ياهذا إلى أين أنت سائر ؟ فقال لها إلى ديار بنى عامر ، فتنهدت وبكت وأنت واشتكت وأنشدت تقول :

أيها الراكب المزجى مطيته عرج لأنبىء عن بعض ما أجد
فما أرى الناس من وجد تضمنهم إلا ووجدى بقيس فوقهم وجد
هوى رساه وإنى فى مودتها ووده إلى آخر الأيام أجتهد

(قال الراوى) فأشفق الرجل عليها وتقدم إليها وقال لها حياك الله ياحرة العرب هل لك من حاجة [illegible] إن كنت من أهل المروءة وكرم الأخلاق والفتوة وعمل هذا المعروف [illegible] كسر قلبى الملهوف وهو أنك متى وصلت إلى [illegible] بنى عامر ووجدت قيس بن الملوح بن مزاحم فمتى اجتمعت به أقرئه منى السلام وقل له ابنة عمك ليلى قد أضناها السقام من شدة الوجد والغرام

وهي لا تلتذ بطعام ولا تذوق أجفانها المنام وقد سارت ميلا بين النساء في سائر الأنحاء ثم كتبت له رقعة ضمنتها هذه الأبيات :

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني　　وأشمت بي من كان فيك يلوم
وأبرزتني للناس ثم تركتني　　لهم غرضاً أرمى وأنت سليم
ولو أن قولا يكلم الجسم قد بدا　　بجسمي من قول الوشاة كلوم

وسار الرجل طالباً حي بني عامر حتى وصل إليه واستدل على قيس فدلوه عليه فحياه بالسلام وحدثه بما قاسته ليلى على التمام . فلما سمع قيس شعر ليلى أن أنين الشاكي ثم تنهد من فؤاده متبول وكتب اليها مع ذلك الرجل يقول :

وأنت التي كلفتني دلج السرى　　وأحدثت جرح القلب وهو كليم
وأنت التي قطعت قلبي صبابة　　ورقرقت دمع العين وهو سجوم
وأنت التي أغضبت قومي فكلهم　　بعيد الرضى داني القطوف كظيم

ثم خرج يجول في نواحي ذلك الوطن إذ مر به سرب من القطا فلما رآه أنشد يقول :

شكوت إلى سرب القطا إذ مررن بي　　فقلت ومثلي بالبكاء جدير
أسرب القطا هل من معير جناحه　　لعلي إلى من قد هويت أطير
وأي قطاة لم يعرني جناحها　　فعاشت بضر والجناح كسير
وإلا فمن هذا يؤدي رسالتي　　وأشكره إن المحب شكور
إلى الله أشكو صبوتي بعد كربتي　　ونيران شوقي ما بهن فتور
وإن لم أمت هماً وغماً وكربة　　يعاودني بعد الزفير زفير
إذا جلسوا في مجلسي هدروا دمي　　فكيف تراها عند ذاك تجير
ودون دمي هز الرماح كأنها　　توقد جمر ثاقب وسعير
أرى النوم يأتي دون ليلى كأنما　　أتى دون ليلى حجة وشهور
فشكى أسيراً مستهاماً وإنه　　إلى ذاك منكم وارحميه فقير

طوت أم عمرو بعد نأى ركابها ... وبان افتراقى والذين أزور

وحالت جبال البعد بينى وبينها ... وهيهات مقصوص الجناح يطير

قطعن الحصى والرمل حتى تفلقت ... قلائد فى أعناقها وظفور

سلوا أم عمرو هل ينول عاشق ... أخو سقم أو هل يفك أسير

ألا قل لليلى هل تراها مجيرتى ... فإنى لها فيما لدى مجير

أظل بحزن أن تغنت حمامة ... من الورق مطراب العشى بكور

بكت حين در الشوق لى وترنمت ... وأرقنى نوح لها وهدير

أيذهب عقلى بعد حلمى وقد علا ... عذارى من لون الشباب قتير

ومستجهلى بعد التحلم نسوة ... أشار بليلى نحوهن مشير

تعودن قتل المسلمين كأنما ... لهن دماء المسلمين طهور

(قال الراوى) ثم مضى على وجهه وأوسع فى القفار فبينما هو يدور إذ [illegible] طيار يجاوب بعضهم بعضاً على غصون الأشجار فدنا منها وأنشد يقول

ألا يا حمامات الحى عدن عودة ... فإنى إلى أصواتكن حزين

فعدن فلما عدن كدن يمتننى ... وكدت بأسرارى لهن أبين

دعون بترداد الهدير كأنما ... شربن مداماً أو بهن جنون

فلم تر عينى مثلهن حمائماً ... بكين فلم تدمع لهن عيون

وأصبحن قد قرقرن إلا حمامة ... لها مثل نوح الثاكلات أنين

تذكرنى ليلى على بعد دارها ... رواجف قلب بات وهو حزين

فياليت ليلى بعضهن وليتنى ... أطير ودهرى عندهن ركون

(وقال أيضاً)

أحبك يا حمامات تطوق ... فقد هيجت مشتوقاً حزينا

أحبك يا حمامات طريق ... بأنى لا أنام وتهجعينا

[illegible] فى شكاة أقول حقا ... [illegible] فى شكاتك تكذبينا

وإني قد براني الحب حتى ... ضنيت وما أراك تغيرينا
أراك الله في مجالك السلامى ... إلى من بالحنين تشوقينا
ولست وإن حننت أشد وجداً ... ولكني أسر وتعلنينا
وبي مثل الذي بك غير أني ... أحل عن القتال وتعقلينا
أما والله غير قلبي وبغض ... أسد ولم أزل جزعاً حزيناً
لقد جعلت دواوين الغواني ... سوى ديوان ليلى ممحلينا
فقدما كنت أرجى الناس عندي ... وأقدرهم على ما تطلبينا
ألا لا تنسين روعات قلبي ... وعصياني عليك العاذلينا

فبينما هو على مثل ذلك هبت ريح من نحو أرض نجد فهاج به الغرام والوجد فأنشد وقال:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... وقد زادني مسراك وجداً على وجد
رعى الله من نجد أناساً أحبهم ... فلو نقضوا عهدي حفظت لهم ودي
سقى الله نجداً والمقيم بأرضها ... سحاب غواد خاليات من الرعد
إذا هتفت ورقاء في رونق الضحى ... على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكي الوليد ولم أزل ... جليداً وأبديت الذي لم أكن أبدي
وأصبحت قد قضيت كل لبانة ... تهامية واشتاق قلبي إلى نجد
وإن قربت دار بكيت وإن نأت ... كلفت فلا للقرب أسلو ولا البعد
ألا حبذا نجد وطيب ترابه ... وأرواحه إن كان نجد على العهد
إذا وعدت زاد الهوى لانتظارها ... وإن بخلت بالوعد مت على الوعد
وقد زعموا أن المحب إذا دنا ... يمل وإن النأي يشفي من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ... إذا كان من تهواه ليس بذي ود

ثم مر به غراب فخفق فؤاده واضطرب وعظم عليه الخطب وأنشد وقال:

ألا يا غراب البين هيجت لوعتي ... فويحك خبرني بما أنت تصدح

أبا البين من ليلى فإن كنت صادقاً ... ولا زال عظم من جناحيك يفسخ
ولا زال رام فيك فوق سهامه ... ولا أنت في عيش ولا أنت تفرخ
ولا زلت من عذب المياه منفراً ... ووكرك مهدماً وبيضك يرضخ
فإن طرت أردتك الحتوف وإن تقع ... تقيض ثعبان بوجهك ينفخ
وعاينت قبل الموت لحمك مشدخاً ... على جمر حر النار يشوى ويطبخ
ولا زلت في شر العذاب مخلداً ... وريشك منتوف وجلدك يسلخ

(قال الراوي) ولما جن عليه الظلام ارتد راجعاً إلى الخيام وبات في قلق شديد وغم ما عليه من مزيد . ولما كان الصباح رجع إلى ما كان عليه من البكاء والنواح وقال وما زال على تلك الحال حتى ضعف جسمه واعتل ، وكاد عقله من شدة الوسواس أن يختل وبلغ ليلى الخبر فأخذها القلق والضجر والاصفرار والنحول والتغير . وفاض دمعها على خديها وانحدر ، وأصبحت في البكاء والسهر وجرى عليها ما لم يجر على أحد ثم كتبت إليه مع من تعتمد عليه أيها الحبيب والسيد الأديب مهجة الفؤاد وزينة الأمجاد من بين سائر الأنام بالكمال وحسن الخصال وحفظ العهود والذمام والمحبة الصالحة الخالية من الآثام ، لقد بلغني ما أنت فيه من الشوق والغرام والوجد والهيام ومكابدة السهر وهجران الطعام واحتمال كلام اللوم حتى اعتراك الهزال وصرت ناحلاً كالخيال وحيث الحالة هذه فاحضر نصف الليل إلى وادي الأراك وأنا أوافيك إلى هناك ولو خاطرت بنفسي في هواك فلا يساوي لذة رؤياك وختمت كلامها بهذين البيتين :

يا ميتي أنت مقصودي ومطلوبي ... وأنت رغماً عن الأعداء محبوبي
إن تحتجب عن عيون الصب يا أملي ... ما أنت عن قلبي المضنى بمحجوب

(قال الراوي) ولما بلغ قيساً هذه الرسالة ووقف على فحوى تلك المقالة انشرح صدره واستراح وخفت عنه بعض الأتراح وأنشد وقال :

تعود مريضاً أسقمته بهجرها ... ولو عاودته عاد لا يعرف السقما

أضرمت بالقلب ناراً من الجوى ... فما تركت عظما ولا تركت لحما
وإني على هجرانها وصدودها ... وما حل بي منها أرى حبها حتما
خليلي كما لا تلوما متيما ... ولا تقتلا صبا بلومكما ظلما

(قال الراوى) ثم انه قصد ذلك المكان وفى قلبه لهيب النيران إلى أن وصل إلى تلك الأرض عند إقبال الظلام ، فجلس وهو يتأمس فى الربى والآكام إلى أن انتصف ظلام الليل وعلا نجم سهيل ، فعند ذلك زاد به القلق والسهر والأرق ، فارتعش فؤاده وخفق ووقع على وجه الأرض وشهق ، وإذا بليلى قد أقبلت نتقدمت إليه وسلمت عليه وقبلته فى عارضيه وبين عينيه ، فلما رآها فرح وا[illegible] وزال عنه الغم والضجر ونهض فى الحال وجلس وردت روحه إليه بعد أن كان على آخر نفس لأن العاشق لا يبرأ إلا بنظر الحبيب إذا رآه ذهب ما يقاسيه من اللهيب . ثم قالت له لقد بلغنى ما أنت به من الهم والحزن حتى ضعف جسمك و[illegible] وجهك بعد ذلك الحسن وذلك كله لأجلى [illegible] أنا [illegible] أهلى . فقال لها وحق من يقول للشيء كن فيكون أنى منذ فارقتك للآن لم تغمض لى جفون ، بل كنت أهيم مع الوحوش فى البرارى و[illegible] وأقتفى الآثار وألقى نفسى فى المهالك والأخطار وأصل الليل بالنهار ، ولا يطيب لى عيش ولا يقر لى قرار . حتى نصرت الأمثال مني وانقلبت القلوب عني وكنت كلما ذكرتك خفق فؤادى وغاب رشادى وتبلبل خاطرى واشتعلت سرائرى إلى أن اضمحل جسمي من الهزال وذاب من شدة الوجد والبلبال لأن ملك الهوى عنيد وقيده أشد من سلاسل الحديد والآن قد انحلت عن قلبي الكروب وانشرح صدرى برؤيتك بعد أن كان متعوب ، ثم غلب عليه جواه وتذكر ما قاساه فتأوه وتنهد وأشار إليها وأنشد :

فوالله لا أدرى علام هجرتنى ... وأى أمور فيك يا ليل أركب

أقطع حبل الوصل فالموت دونه ... وأشرب كاساً علقها ليس يشرب

فلو كان لي قلبان عشت بواحد ... وأبقيت قلباً في هواك يعذب

رمتني يد الأيام عن قوس محنة ... لا العيش يصفو لي ولا الموت يقرب

كعصفورة في كف طفل يهينها ... تقاسي عذاب الموت والطفل يلعب

فلا الطفل ذو عقل يرق لحالها ... ولا الطير مطلوق الجناح فيذهب

(قال الراوي) فلما انتهى قيس من أبياته تساقط دمعه على وجناته فقالت له جزاك الله خيراً ولا أراك سوءاً ولا ضيراً. ثم فاضت عيناه بالدموع وتنفست من فؤاد موجوع و أنشدت:

فلو أن ما ألقى وما بي من الهوى ... بأرعن ركناه صفا وحديد

تقطع من وجد وذاب حديده ... وأمسى تراه العين وهو عميد

ثلاثون يوماً كل يوم وليلة ... أموت وأحيا إن ذا لشديد

(قال الراوي) ثم أنها حدثته بحالها وما أصابها من أجله وكيف خطوب مسها محبة فيه وأنها تحبه وتشتهيه. قال ومازال قيس يحادث ليلى ويتلذذ بالنظر إلى أن مضى وقت السحر ولاح ضوء النهار وظهر بعد ذلك ودعته ورجعت على الأثر خوفاً من أن يراها أحد من البشر. ورجع هو يطلب أطلاله والديار وفي قلبه من أجلها لواعج من نار وهو ينشد ويقول:

لقد أرسلت ليلى إلى رسولها ... أن آتها سراً إذا الليل أظلما

فجئت على خوف وكنت معوذاً ... أحاذر أيقاظاً عداة ونوما

فبت وباتت لا نهاب ريبة ... ولم نتبع يا صاح والله محرما

وكيف عزائي [illegible] ... وقد أورثت في القلب داء مكتما

[illegible] ... ولو كنت ميتاً إذا [illegible]

ولو مسحت بالكف أعمى لأدمت ... [illegible] وشيكاً ثم عاد بلا عمى

منعمة تسبي الحليم بوجهها ... تزين هواها عفة وتكرما

فتلك التى لى كان داء دواؤه وهاروت كل السحر منها تعلما

(وقال أيضاً)

سأبكى على ما فات منى صبابة وأندب أيام السرور الذواهب
[illegible] عينى أن [illegible] بغيركم وإنى وإن جانبت غير مجانب
وخير زمان كنت أرجو دنوه رمتنا عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوماً وكنت محسداً وصبراً على مكروهها والعواقب

(وقال أيضاً)

[illegible] من لا [illegible] لى أن أهاجره ومن أنا فى الميسور والعسر ذاكره
[illegible] أحببت من [illegible] وبغضت من قد كنت حيناً أعاشره
ألا [illegible] نفس [illegible] تسعد النوى ونجوى فؤادى لا تباح سرائره
أحبك يا [illegible] على غير ريبة وما خير حب لا تعف ضمائره
وقد كان قلبى فى حجاب يكنه لحبك من دون الحجاب يباشره
[illegible] [illegible] فى الهوى [illegible] [illegible] عدو أحاذره

(وقال أيضاً)

[illegible] [illegible] كأنها قمر توسط جنح ليل أسود
[illegible] بالحسن ذات حواسد إن الحسان [illegible] للحسد
[illegible] [illegible] ترنو مقلة سوداء ترغب عن سواد الإثمد
[illegible] إذ كثر الكلام تعوذت بحمى الحياء وإن تكلم تقصد

(وقال أيضاً)

[illegible] إلى [illegible] لآيس طوال الليالى من قفول إلى نجد
[illegible] [illegible] واعترف [illegible] إلى يوم القيامة والوعد

وما [illegible] [illegible] حتى [illegible] ويسمر حتى علاه [illegible] والناس ونزل محادثة [illegible] [illegible] حتى القيامة فكان لا يلبس قميصاً إلا حرقه ولا ثوباً إلا مزقه

وكان كثيراً ما يطوف فى البرارى والهضاب ويكتب الشعر بإصبعه فى الأرض على التراب ودمعه يجرى على خديه مثل قطر السحاب ، ولما طال عليه الحال رقت له قلوب الرجال وأقبل منهم جماعة على أبيه وقالوا له أخرجه إلى مكة يطوف بالبيت لعل الله يعافيه وعن حب ليلى يسليه فأجابهم إلى ذلك وامتثل وسار إلى مكة على جمل فلما قدموا به قال له أبوه ياقيس تعلق بأستار الكعبة ففعل فقال اللهم يامن احتجب عن عيون العالم بما كان بما يكون أرحه من حب ليلى وأزل عنه هذا الجنون ، فقال قيس أيها الإله الحى القادر على كل شىء إنى تائب إليك من جميع الخطايا والذنوب إلا عن حب ليلى وذكرها فإنى لا أتوب ، ثم تأوه وتنهد وتنفس الصعداء وأنشد :

دعا المحرمون الله يستغفرونه   بمكة شعثاً كى تمحى ذنوبها
وناديت : يارحمن أول سؤلتى   لنفسى ليلى ثم أنت حسيبها
يقولون تب عن حب ليلى وذكرها   وتلك لعمرى توبة لا أتوبها
يقر لعينى قربها ويزيدنى   بها عجباً من كان عندى يعيبها
فيا نفس صبراً لست والله فاعلمى   بأول نفس غاب عنها حبيبها

فلما سمع أبوه هذه الأبيات أهملت منه العبرات ثم أخذه بيده إلى محفل من الرجال وسألهم أن يدعوا له بالفرج والخلاص من هذه الحال . فلما أخذ الناس فى الدعاء له أنشد وقال :

ذكرتك والحجيج له ضجيج   بمكة والقلوب لها وجيب
فقلت ونحن فى بلد حرام   به لله أخلصت القلوب
أتوب إليك يا رحمن مما   جنيت فقد تكاثرت الذنوب
وأما من هوى ليلى وتركى   زيارتها فإنى لا أتوب
فكيف وعندها قلبى رهين   أتوب إليك منها أو أنيب

قال الراوى : ثم إنه ترك البلد والحرم وانهزم وقصد البرارى والأكم

فتبعه أبوه وجماعة من قومه حتى أدركوه . وأرادوا أن يربطوه بالحبال ويكتفوه ، فقال لهم بالله عليكم تمهلوا على قليلا فإن قلبي أضحى عليلا ثم صاح صيحة عظيمة وأنشد يقول :

أحقاً عباد الله أن لست صادرا ولا وارداً إلا على رقيب
ولا جالساً وحدى ولا فى جماعة من الناس إلا قيل أنت مريب
وهل ريبة فى أن تحن نجيبة إلى إلفها أو أن يحن نجيب
وكيف أعزى القلب بعد فراقها وأنى على طول الزمان حبيب

(وقال أيضاً)

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم
يتيم جفاه الأقربون فعظمه كسير وفقد الوالدين عظيم
بكت كبدى من فقدها وتهللت دموعى كما ضل فهو سجوم
وإن زماناً فرق الله بيننا وبينك ياليلى فذاك مشوم
دعونى فما عن رأيكم كان حبها ولكنه حظ لها وقسيم

(وقال أيضاً)

أيا هجر ليلى قد بلغت بى المدى وزدت على ما لم يكن بلغ الهجر
عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
تكاد يدى تندى إذا ما لمستها وينبت فى أطرافها الورق الخضر
ووجه له ديباجة قرشية به تكشف البلوى ويستنزل القطر
ويهتز من تحت الثياب قوامها كما اهتز غصن البان وانثنى الخصر
فيا حبذا الأحياء ما دمت فيهم ويا حبذا الأموات إن ضمك القبر
وإنى لتعرونى لذكراك نفضة كما انتفض العصفور بلله القطر
تمنى [illegible] وزارت ليلى أن يكون لنا الأجر

فما هو إلا أن أراها فجـــأة ... فأبهت لا عرف لدى ولا نكر
فلو أن مابى بالحصى فلق الحصى ... بالصخرة الصماء لانصدع الصخر
ولو أن مابى بالوحوش لما رعت ... ولا ساغها الماء النمير ولا الزهر
ولو أن مابى بالبحار لما جرت ... بأمواجها بحر إذا زخر البحر

(قال الراوى) فبكى أبوه شفقة عليه وهطلت دموعه على وجنتيه ، ثم اعتنقه وقبله بين عينيه وقال له ياولدى إلى متى وأنت فى هذا الشقاء العظيم والبلاء الجسيم ، أما كفاك الجولان فى القفار وعدم الهجوع والقرار وسهر الليـل والنهار ، حتى عدمت النشاط وصرت كل يوم فى ضعف وانحطاط ، فإن بقيت على مثل هذه الحال لاتزال فى انهزال وانحلال لأنه ليس فى ذلك إلا إضاعة العمر والمصير إلى المهالك ، فهلم معى الآن إلى بنى عامر وكن منشرح الصدر مطمئن الخاطر وأنا أتلافى هذه القصة وأزوجك بليلى وأزيل عنك هذه الغصة قال :

ومازال أبوه يشاغله بالأحاديث اللطيفة والعبارات الظريفة إلى أن راق ولان ورجع معه إلى الأوطان وزالت عنه الغموم والأحزان وفرح به الأهل والخلان وصار عند أبيه فى أعلى درجة وأرفع مكان ، فهذا ماكان منه وماجرى له من مكابدة العشق وحر الصبابة والوله . وأما من كان من ليلى فإنه قد شاع ذكرها بالآفاق وتحدثت فيها الناس فى الحجاز وبلاد نجد والعراق ، وتناشدوا ماقال فيها قيس من الأشعار الرقاق ، التى لم يسبقه إليها أحد من فحول الشعراء والعشاق ، فكان كل واحد يود أن ينظر ويتمنى أن يراها ويبصرها فترادفت عليها الخطاب وكثرت عليها الطلاب ودخلوا على أبيها فى ذلك من كل باب ، وكان من جملتهم رجل من بنى ثقيف يقال له سعد بن المنيف وكان أعظم من طلبها قدراً وأفخمهم ذكرا فاستشار الأب ابنته ليلى وأظهر له رغبته فى ذلك المولى وقال لها قد انتشر صيتك فى بلاد العرب

وخطبك من السادات أصحاب المناصب والرتب ، وأنا أصد كل طالب ولا أصغى لخطبة خاطب خوفاً من زوج ذميم الأخلاق قبيح السيرة كز المذاق لا تقدرين على معاشرته وتتعبين فى مرافقته ، إلى أن خطبك هذا الإنسان وهو من أكابر هذا الزمان وعمدة الذوات والأعيان كثير المال محمود الخصال قد تحلى بالأدب والجمال واتصف بالهمة العلية والكمال وقد أجبته إلى هذا السؤال وأزوجك إياه دون بقية الرجال لأنه لابد للمرأة من زوج يلمها فيسترها ويفرج همها ، فلما سمعت ليلى من أبيها ذلك الخطاب ، أظهرت الكدر والاكتئاب وعظم عليها ذلك الأمر واكتوى قلبها بلهيب الجمر لأن هذا الخبر لا يوافق غرضها ولا يشفى غلتها ومرضها لأنها كانت تحب قيساً وتميل إليه ولا يستقر خاطرها إلا عليه نظراً لما بينهما من المحبة القديمة والصداقة القويمة فأنت ولم تقل وفضلت حلول الأجل وقالت هذا أمر لا يتم أبداً ولو مت قهراً وكمداً ، فلما سمع كلامها وعلم مافى ضميرها ومرامها تهددها ودار به الغيظ ، فلطمها فاجتمع عليه الجيران والأهل والخلان فلما رأت ماحل بها من الهوان وإن موج البلايا أحاط بها من كل مكان أجابت سؤله بالكره والإجبار لا بالطوع والاختيار ثم ندمت على زواجها غاية الندم وجرى قلم القضاء بما حكم ، وصارت محبتها له تكلفاً ورؤيتها إياه تعسفاً فكان لا يقر لها قرار ولا يطيب لها عيش لا بالليل ولا بالنهار . قال ولما بلغ قيساً هذا الخبر اضطرب وتحرق قلبه والتهب واستولى عليه الجنون بعد الهدوء والسكون وأنشد يقول :

وقد خبرونى أن ليلى تزوجت	ولا بد لى من أن ألاقى حليلها
فإن كان مثلى لم ألمها على الهوى	وإن كان دونى بئس ما قد قضى لها
وإن كان من أو باش ما حوت القرى	لقد تعست ليلى وأضنت خليلها

(وقال أيضاً)

حبيب نأى عنى الزمان بقربه ... فصيرنى فرداً بغير حبيب
على قلب محزون ونفس مدله ... ووحشة مهجور وذل غريب
فياحقب الأيام هل فيك مطمع ... لرد حبيب أو لدفع كروب

ثم خنقته العبرة وزادت عليه الحال ، فخرج يهيم فى الصحارى والتلال ويطوف فى قلل الجبال ويتحمل المشقات والأثقال ، ويقتحم الموارد حتى ضعف جسمه من شدة الانتحال . وجف جلده على عظمه لقوة الهزال، فشق على الأهل والجيران والأصدقاء والخلان وقالوا لأبيه لو كنت تحمله وتعرضه على طبيب ربما انتفع بعلاجه وتعود صحته إليه عن قريب ، فامتثل وخرج إلى الصحراء فى طلبه حتى اجتمع به ، فلاطفه بالكلام ولاقاه بالبشاشة والإكرام ثم إنه سار به إلى طبيب فى تلك الأطراف يقال له علقمة بن عساف وهو فى بلاد العرب مشهور بمعالجة المجنون والمسحور ، فلما دخل عليه حدثه بقصة ولده على التمام وما هو فيه من العشق والغرام وكيف أنه قد حمل نفسه ما لا يطاق إلى أن أنهكه سقمه وأصبح بعد صحته عبرة لمن يراه بعد ما كان فريد زمانه ووحيد دهره وأوانه وفاق بالفصاحة والآداب سائر أقرانه ، فعند ذلك أخذ الطبيب يسقيه شربة بعد شربة ويكررها فى الأحيان ، فلما أكثر عليه المقال أنشد وقال :

ألا يا طبيب الجن ويحك داونى ... فإن طبيب الإنس أعياه دائيا
أتيت طبيب الإنس شيخاً مداوياً ... بمكة يعطى فى الدواء الأمانيا
فقلت له يا عم حكمك فاحتكم ... إذا ما كشفت اليوم يا عم ما بيا
فوضع يديه بين حاجبيه ... [illegible]
[illegible] ... أطبيب رب الناس [illegible]
فقال شفاء الحب أن تلصق الحشا ... بأحشاء من تهوى إذا كنت خاليا

قال الطبيب نعم ليس للعاشق الكئيب دواء إلا منادمة الحبيب ، فإذا حصل على ذلك الغرض زال عنه ذلك المرض هذا وقيس يعض على لسانه وشفتيه حتى كاد من فرط الحزن يقطعهما ، ثم نهض وخرج على وجهه هائماً فى الفلوات ، فبينما هو يدور رأى ناراً فى بعض الجهات فدنا ، وإذا حولها قوم رعاة فأنشد وقال :

رعاة الليل ما فعل الصباح ... وما فعلت أوائله الملاح
وما بال النجوم معلقات ... بقلب الصب ليس لها براح
كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح
رعاة الليل كونوا كيف شئتم ... فقد أودى بى الحب المتاح

(وقال أيضاً)

ذكرت عشية الصدفين ليلى ... وكل الدهر ذاكرها جديد
إذا حال الغراب الجون دونى ... فقلبى إلى ليلى بعيد
على ألية إن كنت أدرى ... أينقص حب ليلى أو يزيد
لها فى طرفها لحظات حتف ... تميت بها وتحيى من تريد
وإن غضبت رأيت الناس هلكى ... وإن رضيت فأرواح تعود

(وقال أيضاً)

أقول لأصحابى وقد طلبوا الصلا ... تعالوا اصطلوا إن خفتم القر من صدرى
فإن لهيب النار بين جوانحى ... إذا ذكرت ليلى أحر من الجمر
فقالوا نريد الماء نسقى ونستقى ... فقلت تعالوا فاستقوا الماء من نهرى
فقالوا وأين النهر قلت مدامعى ... سيغنيكم دمع الجفون عن الحفر
فقالوا ولم هذا فقلت من الهوى ... فقالوا لحاك الله قلت اسمعوا عذرى
ألم تعرفوا وجهاً لليلى شعاعه ... إذا برزت يغنى عن الشمس والبدر

تمـرّ بوهمي خاطر فيؤودها ⠀⠀ ويجرحها دون العيـان لها فكري
منعمـة لو قابل البـدر وجهها ⠀⠀ لـكان له فضل مبين عـلى البدر
هلالية الأعـلى ماطحـة الذرى ⠀⠀ مرجرجة السفـلى مرفهـة الخصر
مسبة هيمـــاء مهضومة الحشـا ⠀⠀ موردة الخـدين واضحـة الثغر

مـدملجة الســاقين بضّة بضيضـة … مفلجـة الأنيـاب مصقولة الثغر

فقالوا أمجنون فقلت موسوس … أطوف بظهر البيد قفراً إلى قفر

فلا ملك الموت المريح يريحني … ولا أنا ذو عيش ولا أنا ذو صبر

وصاحت بوشك البين منها حمامة … تغنت بليل فى ذرى ناعم نضر

على دوحة بست تحت أصولها … نواقع ماء مده رضب الصخر

مطوقة طوقاً ترى فى خطامها … أصول سواد مطمئن على النحر

أ ... أعلى الصوت منها فهيجت … فؤاداً معى بالمنحنى أو تدرى

فقلت لها عودى فلما ترنمت … تبادرت العينان سحاً على الصدر

كأن فؤادى حين حل مسيرها … جناح غراب رام نهضاً إلى الوكر

فودعتها والنا ... تقدح فى الحشا … وتودعهم عندى ... ...

و ... كأنى ... ... … بقيت دم الحيات حين ... عمرى

أبيت صريع الحب دام من الورى … وأصبح مروع الفؤاد من الصدر

رمتنى يد الأيام عن قوس غدره … بسهمين ... عسرتنى ... ...

بسهمين مسمومين من رأس شاهق … ... ...

... ... دعيني فى الهوى ... … ... ... لا ... ...

ولو كنت ماء كنت من ماء مزنة … ولو كنت يوماً كنت من غرة الدهر

ولو كنت ليلا كنت ليل تواصل … ولو كنت نجماً كنت بدر الدجى يسرى

عليك سلام الله يا غاية المنى … وقاتلتى حتى القيامة والحشر

(وقال أيضاً)

... ... لا أحبها … ... وإنى العشر والتشفع والوتر

... والذى لا يعلم الغيب غيره … بقدرته تجرى السفائن فى البحر

... ... من الطور ... … وعظم أيام الذبيحة والنحر

... ... على الناس مثلما … على ... ... فضلت ليلة القدر

تداويت عن ليلى بليلى من الهوى ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
إذا ذُكرت ليـــلى أسر بذكرها ... كما انتفض العصفور من بلل القطر
مفلجة الأنياب لو أن ريقها ... يداوى به الموتى لقاموا من القبر
هي البدر حسناً والنساء كواكب ... فشتـان ما بين الكواكب والبدر
يقولون مجنون يهيم بذكرها ... ووالله ما بى من جنون ولا سحر
إذا ما قرضت الشعر فى غير ذكرها ... أبى وأبيكم أن يطاوعنى شعرى
فلا نعمت بعدى ولا عشت بعدها ... ودامت لنا الدنيا إلى ملتقى الحشر
عليها سلام الله من ذى صبابة ... وصب معنى بالوساوس والفكر
ليالى أعطيت البطالة مقودى ... تمر الليالى والسنون ولا أدرى
مضى لى زمان لو أخير بينه ... وبين حياتى خالداً أبد الدهر
لقلت ذرونى ساعة وكلامها ... على غفلة الواشين ثم اقطعوا عمرى

(وقال أيضاً)

أنيرى مكان البدر إن أفل البدر ... وقومى مقام الشمس ما استأخر الفجر
ففيك من الشمس المنيرة ضوءها ... وليس لها منك التبسم والثغر
بلى لك نور الشمس والبدر كله ... ولا حملت عينيك شمس ولا بدر
لك المشرق اللألاء والبدر طالع ... وليس لها منك الترائب والنحر
ومن أين للشمس المنيرة بالضحى ... بمكحولة العينين فى طرفها فتر

(قال الراوى) وأقام قيس مع الرعيان نحو ساعة من الزمان وهو ينشد [illegible] ثم ترك المكان وقصد بعض الهضاب وصار يتمرغ [illegible] بالتراب [illegible] وفى مثل ذلك الأوان إذ مر به [illegible] جماعة من الخدم والغلمان فقال [illegible] فلما رآه على تلك الحالة [illegible] فقال له هذا مجنون بنى عامر

الذى فاق بالفصاحة والنظام على كل أديب وشاعر ، وكان قد عشق جارية فى هذه الأيام يقال لها ليلى بنت المهدى بن عصام وتعلق قلبه بحبها وهام ، وهجر الأهل والأحباب وقصد البرارى والهضاب ، واختار القفار وطنا واتخذها لنفسه سكنا ، فقال نوفل : قد كنت أحب أن أنظر هذا الرجل وألقاه وأحظى برؤياه لأنى سمعت كثيراً عنه فكيف لى بالدنو منه قال أذكر له ليلى فإذا ذكرتها أفاق وصفا خاطره وراق ، وأنشدك من أشعاره البديعة ما لم يسبقه إليه أحد من شعراء مضر وربيعة . فعند ذلك تقدم نوفل إليه وسلم عليه ، وقال له بحياة ليلى التى هى عندك أعظم من كل شىء شنف بنفائس أشعارك أذنى لأنه قد بلغنى أنك أفصح الناس كلاما وأجودهم شعراً ونظاما ، فبكى قيس وتمثل لما سمع كلام نوفل ، وأنشد من فؤاد متبول القصيدة التى قالها فى التمدين :

تذكرت ليلى والسنين الخواليا ... وأيام لا نخشى على اللهو ناهيا
ويوم كظل الرمح قصرت ظله ... بليلى فلهانى وما كنت لاهيا
بثمدين لاحت نار ليلى وصحبتى ... بذات الغضى تزجى المطى النواجيا
فقال بصير القوم ألمحت كوكباً ... بدا فى سواد الليل فرداً يمانياً
فقلت له بل نار ليلى توقدت ... بعليا تسامى ضوؤها فبدا ليا
فليت ركاب القوم لم تقطع الغضى ... وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
فيا ليل كم من حاجة لى مهمة ... إذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيا
خليلى أن لا تبكيانى ألتمس ... خليلا إذا أنزفت دمعى بكى ليا
فما أشرف الأيفاع إلا صبابة ... ولا أنشد الأشعار إلا تداويا
وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا
لحى الله أقواما يقولون إننا ... وجدنا طوال الدهر للحب شافيا
وعهدى بليلى وهى ذات مؤصد ... ترد علينا بالعشى المواشيا

فشب بنو ليلى وشب بنو ابنها … وأعلاق ليلى فى فؤادى كما هيا

إذا ما جلسنا مجلساً نستلذه … تواشوا بنا حتى أمل مكانيا

سقى الله جارات لليلى تباعدت … بهن النوى حيث احتللن المطاليا

ولم ينسنى ليلى افتقار ولا غنى … ولا توبة حتى احتضنت السواريا

ولا نسوة صبغن كيداء جلعد … لتشبه ليلى ثم عرضنها ليا

خليلى لا والله لا أملك الذى … قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا

قضاها لغيرى وابتلانى بحبها … فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا

وخبرتمانى أن تيماء منزل … لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا

فهذى شهور الصيف عنا قد انقضت … فما للنوى ترمى بليلى المراميا

فلو أن واش باليمامة داره … ودارى بأعلى حضرموت اهتدى ليا

وماذا لهم لا أحسن الله حالهم … من الحظ فى تصريم ليلى حباليا

وقد كنت أعلو حب ليلى فلم يزل … بى النقض والإبرام حتى علانيا

فيارب سو الحب بينى وبينها … يكون كفافاً لا على ولا ليا

فما طلع النجم الذى يهتدى به … ولا الصبح إلا هيجا ذكرها ليا

ولاسرت ميلا من دمشق ولا بدا … سهيل لأهل الشام إلا بدا ليا

ولا سميت عندى لها من سمية … من الناس إلا بل دمعى ردائيا

ولا هبت الريح الجنوب لأرضها … من الليل إلا هبت الريح جانبيا

فإن تمنعوا ليلى وتحموا بلادها … على فلن تحموا على القوافيا

فأشهد عند الله أنى أحبها … فهذا لها عندى فما عندها ليا

قضى الله بالمعروف منها لغيرنا … وبالشوق منى والغرام قضى ليا

وإن الذى أملت يا أم مالك … أشاب فويدى (١) واستهان فؤاديا

أعد الليالى ليلة بعد ليلة … وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا

---

(١) ورد فى نسخة : جانبيه .

وأخرج من بين البيوت لعلنى ... أحدث عنك النفس بالليل خاليا

أرانى إذا صليت يممت نحوها ... بوجهى وإن كان المصلى ورائيا

وما بى إشراك ولكن حبها ... وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويا

أحب من الأسماء ما وافق اسمها ... وأشبهه أو كان منه مدانيا

خليلى ليلى أكبر الحاج والمنى ... فمن لى بليلى أو فمن ذا لها بيا

لعمرى لقد أبكيتنى يا حمامة العقيق وأبكيت العيون البواكيا

خليلى ما أرجو من العيش بعدما ... أرى حاجتى تشرى ولا تشترى بيا

وتجرم ليلى ثم تزعم أننى ... سلوت ولا يخفى على الناس ما بيا

فلم أر مثلينا خليلى صبابة ... أشد على رغم الأعادى تصافيا

خليلان لا نرجو اللقاء ولا نرى ... خليلين لا يرجون إلا تلاقيا

وإنى لأستحييك أن تعرض المنى ... بوصلك أو أن تعرضى فى المنى ليا

يقول أناس عل مجنون عامر ... يروم سلواً قلت إنى لما بيا

بى اليأس أو داء الهيام أصابنى ... فإياك عنى لا يكن بك ما بيا

إذا ما استطال الدهر يا أم مالك ... فشأن المنايا القاضيات وشانيا

إذا اكتحلت عينى بعينك لم تزل ... بخير وجلت غمرة عن فؤاديا

فأنت التى إن شئت أشقيت عيشتى ... وأنت التى إن شئت أنعمت باليا

وأنت التى ما من صديق ولا عدا ... يرى نضو ما أبقيت إلا رثى ليا

أمضروبة ليلى على أن أزورها ... ومتخذ ذنبا لها أن ترانيا

إذا سرت فى الأرض الفضاء رأيتنى ... أصانع رحلى أن يميل حياليا

يميناً إذا كانت يميناً وإن تكن ... شمالا ينازعنى الهوى عن شماليا

وإنى لأستغشى وما بى نعسة ... لعل خيالا منك يلقى خياليا

هى السحر إلا أن للسحر رقية ... وإنى لا ألفى لها الدهر راقيا

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا ... كفى لمطايانا بذكراك هاديا

ذكت نار شوق في فؤادي فأصبحت … لها وهج مستضرم في فؤاديا
ألا أيها الركب اليمانون عرجوا … علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
أسائلكم هل سال نعمان بعدنا … وحب إلينا بطن نعمان واديا
ألا يا حمامي بطن نعمان هجتما … علي الهوى لما تغنيتما ليا
وأبكيتماني وسط صحبي ولم أكن … أبالي دموع العين لو كنت خاليا
ويا أيها القمريتان تجاوبا … بلحنيكما ثم اسجعا علانيا
فإن أنتما استطربتما أو أردتما … لحاقا بأطلال الغضى فاتبعانيا
ألا ليت شعري [illegible] … وما تصنعا بي بعد شيب قذاليا
ألا أيها الواشي بليلى ألا ترى … إلى من تشيها أو لمن جئت واشيا
لئن ظعن الأحباب يا أم مالك … فما ظعن الحب الذي في فؤاديا
فيا رب إذ صيرت ليلى هي المنى … فزني بعينيها كما زنتها ليا
وإلا فبغضها إلي وأهلها … فإني بليلى قد لقيت الدواهيا
على مثل ليلى يقتل المرء نفسه … وإن كنت من ليلى على اليأس طاويا
خليلي إن ضنوا بليلى فقربا … لي النعش والأكفان واستغفرا ليا

(قال الراوي) فلما انتهى قيس من شعره اهتز نوفل طرباً وتمايل عجباً وقال لله درك على هذه الألفاظ الرشيقة والمعاني البديعة الرقيقة فإنها تشرح الخواطر والقلوب وتجلي غموم المكروب وتسلي المحب على فراق المحبوب، لأنك ما تركت من طرائف الحزن والنسيب وأنواع البديع في وصف الحبيب مقالا لشاعر ليت قول الحب صيرك إلى ما أرى، فقال له نعم وقد ساقني إلى أكثر مما ترى وأنشد يقول :

أيا حرجات الحي حين تحملوا … بذي سلم لا جادكن ربيع
وخيماتك اللاتي بمنعرج اللوى … بلين بلى ما إن لهن رجوع
إلى الله أشكو نية شقت العصا … هي اليوم شتى وهي أمس جميع

فلو لم يهجنى الظاعنون لهاجنى ... نوائح ورق فى الديار وقوع
هداعين فاستبكين من كان ذا هوى ... نوائح لا تجرى لهن دموع
لعمرى إنى يوم جرعاء مالك ... لعاص لأمر العاذلين مطيع
وما كاد قلبى بعد أيام جاوزت ... إلى بأجوار المدى يريع
وإن انهمال الدمع ياليل كلما ... ذكرتك يوماً خالياً لسريع
ندمت على ما كان منى ندامة ... كما ندم المغبون حين يبيع
لعمرك ما شىء سمعت بذكره ... كبينك يأتى بغتة فيروع
عدمتك من نفس شعاع فاننى ... نهيتك عن هــــذا وأنت جميع
فقربت لى غير القريب وأشرفت ... هناك ثنايا ما لهن طلوع
يضعفنى حبيك حتى كأننى ... من الأهل والمال التليد نزيع
وحتى دعانى الناس أحمق مائقاً ... وقالوا تبوع للضلال مطيع

(قال الراوى) ثم تزايدت حسراته وتصاعدت زفراته فنهض وبكى وتأوه وتشكا وقال جفانا الأصحاب وتخلى عنا الأهل والأحباب فيالله من أمر عظيم وخطب جسيم . فقال له نوفل اعلم أيها الأخ المفضل إن دمت على هذه الحال فإنك هالك لا محالة فتب إلى الله وارجع إليه واعتمد فى أمورك عليه . يكشف عنك هذا العرض ويزيل من قلبك هذا المرض ؛ فأجابه قيس قائلا ياأخى كيف أطيق الصبر وقد اشتعل قلبى من الهوى بجمر . فبالله عليك دعنى ودعنى أقاسى العذاب وأقتحم موارد الهلاك والعطب . لأنك كلما عزيتنى ونهيتنى ونصحتنى ازددت فيها محبة وقويت إليها رغبتى ثم غاب عنه العقل فأنشد وقال

إليك عنى فإنى مدنف وصب ... أما ترى الجسم قد أودى به العطب
لله قلبى ماذا قد أتيح له ... حر الصبابة والأوجاع والوصب
ضاقت على بلاد الله ما رحبت ... يا للرجال فهل فى الأرض مضطرب

البين يؤلمنى والشوق يجرحنى والدار نازحة والشمل منشعب
كيف السبيل إلى ليلى وقد حجبت عهدى بها زمناً مادونها حجب

(وقال أيضاً)

لو سيل أهل الهوى من بعد موتهم هل فرجت عنكم مذ متم الكرب
لقال صادقهم أن قد بلى جسدى لكن نار الهوى فى القلب تلتهب
جفت مدامع عين الجسم حين بكى وإن سباسمع عين الروح تنسكب

(وقال أيضاً)

وقالوا لو تشاء سلوت عنها فقلت لهم فإنى لا أشاء
وكيف وحبها علق بقلبى كما علقت بأرشية دلاء
لها حب تنشأ فى فؤادى فليس له وإن زجر انتهاء
وعاذلة تقطعنى ملاماً وفى زجر العوازل لى بلاء

(وقال أيضاً)

إن الغوانى قتلت حشاتها ياليت من جهل الصبابة ذاقها
فى صدغهن عقارب يالسعننا ما من لسعن بواجد ترياقها
إن النقاء عناق كل خريدة كالخيزرانة لا تمل عناقها
بيض تشبه بالحقاق ثديها من عاجه حكت الثدى حقاقها
يدى الخروب جلودهن وإنما يكسين من حلل الحرير رقاقها
زانت روادفها دقاق خصورها إنى أحب من الخصور دقاقها
[illegible] طرق الرجال خياطها ماكنت زائرها ولا طراقها

(قال الراوى) فتعجب الملك من سرعة بديهته وعذوبة ألفاظه ورقة [illegible] [illegible] فقال له أيها الخطيب والشاعر اللبيب [illegible] لدى أن أراك فى هذه الحال تقاسى العذاب والنكال [illegible] [illegible] وأنا أزوجك ببعض البنات الأبكار من

هى احسن واحلى من ابنة عمك ليلى ، فلما سمع كلامه جمدت عيناه ونظمت بلاياه ، وقال لاسمعت قولك أبداً ولا تركت ليلى على طول المدى ، فعند ذلك تركه ومضى ربى قيس يهيم فى السهول والأوعار ، ينشد الأشعار ويتقوت بنبات القفار يقاسى المشقات والأخطار .

(قال الراوى) وكانت ليلى منذ تزوجت لا تنشف لها دمعة ولا تبرد لها لوعة وذلك لخوفها على قيس ووجدها به لأنها كانت مشغوفة بحبه وكان لا يقر لها قرار ولا يطاوعها اصطبار بل كانت تبكى فى الليل والنهار بدموع غزار إلى أن فار دم قلبها من فرط عشقها وحبها ، ولما طال عليها الحال أنشدت تقول من فؤاد متبول :

إذا هدأت رجلى بدأت بذكره ... وأحلم فى نومى به وأعيش
إذا ذكر المجنون زالت بذكره ... قوى النفس أوكاد الفؤاد يطيش
ووالله ما زال الفؤاد يحبه ... وإن كان صدرى من هواه يجيش

قال لبيد بن عنبسة حدثنى بعض الرواة أنه قيل لليلى العامرية زاتة لئن لم تنته عن ذكره لنقتلنكما معا ، فبعثت إلى القائل على يد مولاة لها رقعة مكتوباً فيها :

توعدنى قومى بقتلى وقتله ... فقلت اقتلونى واتركوه من الذنب
ولا تتبعوه بعد قتلى ذلة ... كفى بالذى يلقاه من سورة الحب

(قال الراوى) ثم استدعت بغلام من أهل الحى الذى كانت تعتمد عليه فى كل شىء وكتبت إلى قيس مع ذلك الغلام تقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

اعلم يا ابن العم وقاك الله من عاقبة التغيير يا ابن العم أنه قد أوحشنى من بعدك [illegible] وقد ... رأيتنى مواظبة على الأحزان لا أرى فرجاً قط ولا قرار لمستقر ، [illegible] ضاق صدرى وقل صبرى وتزايدت على

الأسقام من كثرة البكاء وقلة الأكل والطعام ، ولا شك بأن حياتى فى هذه الدنيا صارت قصيرة وأيام إقامتى يسيرة حيث لم يعد لى صبر على الفراق وقد اكتوى قلبي بنيران الاشتياق ، وما بقى فى الأمر إلا التسليم والانقياد على ما قدره علينا رب العباد ، وختمت كلامها بهذه الأبيات :

قد كنت حاذرة للدهر عارفة ... أن سوف يطلبنى بالرمى مفتقدا
حتى رمانى بمن قد جل عن صفتى ... فما أرى لى به ويلى الغداة يدا
لقت الدواة بماء العين ثم بدا ... كتبت ما يكتب المجهود إذ جهدا
هذا الوداع لمن روعى الفداء له ... قد خفت ألا أراه بعده أبدا

ثم إنها أمرت ذلك الشاب أن يسير فى طلبه فى البرارى والهضاب وانهى بانتظار الجواب فامتثل وسار وقصد الروابى والقفار ولا زال يطلبه فى جوانب البر حتى التقى به فى يوم شديد الحر قد التجأ إلى كهف جبل عظيم بالقرب من ديار بنى تميم وهو مستلق على ظهره وغارق فى بحار فكره ينشد ويقول :

أحن إلى ليلى وإن شطت النوى ... بليلى كما حن اليراع المثقب
يقولون ليلى عذبتك بحبها ... ألا حبذا ذاك الحبيب المعذب

(قال الراوى) فدنا منه الغلام وحياه بالسلام ولاطفه بالكلام ، وقال له أيها الشاب الظريف والأديب اللطيف ، إن محبوبتك ليلى تسلم عليك وقد أرسلتنى بكتاب إليك ، فيه ما يسر الخاطر ويشرح القلوب والنواظر ، فلما ذكرت له ليلى رجع عقله إليه واستوى جالساً على قدميه ، وتناول الكتاب وقرأه ووقف على فحواه وطرب وتنهد وكفكف دموعه وأنشد :

إذ جاءنى منها الكتاب بعينه ... خلوت بنفسى حيث كنت من الأرض
فأبكى لنفسى رحمة من جفائها ... ويبكى من الهجران بعضى على بعضى
وإنى لأهواها مسيئاً ومحسناً ... وأقضى على نفسى لها بالذى تقضى
فحتى متى روح الرضا لا ينالنى ... وحتى متى أيام سخطك لا تمضى

ثم أجابها على كتابها يقول : من قيس بن الملوح الهائم الوامق والحبيب الصادق ، إلى سيدة الملاح وكوكب الصباح ، درة الصدف وياقوتة الشرف ، من قد اتصفت بالمحاسن البهية والصفات العلية والآداب السنية ليلى العامرية إنني بينما كنت متشوقاً إلى استماع أخبارك واستكشاف آثارك ، وافظك وحالك ومشاهدة أنوار جمالك ، إذ ورد إلى عزيز رسالتك الموسومة بسيماء المحبة المسفرة عن ازدياد الصحبة والصداقة ، فتلقاها القلب بالفرح وزال عنه الغم وانشرح غير أنه لايخفاك ما أنا فيه من الكدر والقلق والضجر وكثرة البكاء والسهر ، وكيف إنى تركت الوطن المألوف وانفردت فى الروابى والكهوف ، أهيم مع الوحوش والغزلان وأنتقل من مكان إلى مكان ، وحيداً عريانا ذليلا مهانا أقاسى شراً وأحزاناً لا يستقيم لى حال ولا يرتاح لى بال ؛ حتى صرت نحيلا كالخيال وذلك من كثرة الأشواق وتباريح الهوى ومرارة الفراق ، فقاتل الله أباك الغدار وبلاه بالويل والدمار لأنه كان سبب بليتى وطردى عن أهلى وعشيرتى وما كفاه ذلك حتى أنه زوجك برجل غريب واختار البعيد على القريب وهذا شرح مابى من الشقاء والتعذيب . وإنى لك على طول الزمان حبيب .

(قال الراوى) ثم تصاعدت من أنفاسه الزفرات فختم كلامه بهذه الأبيات

أيا مهدى لى نعى الحبيب صبيحة   بمن وإلى من جئتما تشيان
بمن لو رآه عانياً لفديته   ومن لو رآنى عانياً لفدانى
فمن مبلغ عنى الحبيب رسالة   بأن فؤادى دائم الخفقان
وانى ممنوع من النوم مدنف   وعيناى من وجد الأسى يكفان

(وضمنه أيضاً)

وجدت الحب نيراناً تلظى   قلوب العاشقين لها وقود
فلو كانت إذا احترقت تفانت   ولكن كلما احترقت تعود
كأهل النار إذا نضجت جلود   أعيدت للشقاء لهم جلود

(وضمنه أيضاً)

أما والذى أعطاك بطشاً وقوة ... وصبراً وأزرى بى وانقص من بطشى
لقد محض الله الهوى لك خالصاً ... وركبه فى القلب منى بلا غش
تبرأت من كل الجسوم وحل بى ... فإن مت يوما فاطلبوه على نعشى
سلى الليل عنى هل أذوق رقاده ... وهل لضلوعى مستقر على فرشى

(وقال أيضاً)

فؤادى بين أضلاعى غريب ... ينادى من يحب فلا يجيب
أحاط به البلاء فكل يوم ... تقارعه الصبابة والنحيب
لقد جلب البلاء على قلبى ... فقلبى مذ علمت له جلوب
فإن تكن القلوب كمثل قلبى ... فلا كانت إذاً تلك القلوب

(قال الراوى) ثم إن ذلك الشاب رجع إلى ليلى بالجواب ، وأخبرها عن قيس وأحواله وما يقاسى من وجده وبلباله ، فتشوش خاطرها وتكدرت خمائرها وتضاعف همها وغمها ، وتحسرت على قيس ابن عمها ، فكانت تبكى عليه فى الليل والنهار وتنشد رقيق الأشعار ، ودامت على ذلك مدة مديدة وأياماً عديدة . قال واتفق فى وقت من الأوقات أن جاريتها رأت فى بعض الطرقات صياداً معه خمسة غربان ، فاشترتهم وأتت بهم إلى سيدتها فخرجت بهم ليلى إلى خارج البيوت وجعلت تضرب غراباً غراباً حتى يموت فتعجب زوجها واندهل . وقال لها ما الذى أحوجك إلى هذا العمل : فقالت أن نعيق الغراب يدل على فراق الأحباب وتمزيق شمل الأصحاب ، وأن ابن عمى قيساً ذكرهم فى شعره جملة مرات ، وأمرهم أن ينعقوا على عرصات القفار وقد قال :

مر أجل غربان تصيحين غدوة ... ببينونة الأحباب دمعك سافح
نعم سجلت العينان من غير عبرة ... كما سل من نظم اللآلى تطارح
ألا يا غراب البين لا صحت بعدها ... وأمكن من أوداج حلقك ذابح

يروع قلوب العاشقين ذوى الهوى إذا أمنوا الشنحاج أنك صائح
وعد سواء الحب واتركه خالياً وكن رجلا واجمح كما هو جامح

فآليت أن لا أقع بغراب بعد هذا المقال إلا قتلته فى الحال ، واعلم يا هذا حفظك الله وهداك أن تزوجى إياك لم يكن رغبة فى جمالك ولا فى رفعة مقامك وكثرة مالك ، وقد كنت حلفت أن لا أتزوج بعد قيس أبداً ولو مت شوقاً وكمدا لأنه صاحبى ومعتمدى وقرة عينى ومهجة كبدى ، وحبه لا ينتزع من قلبى وجسدى ، وليس فى ذلك من عار ولا عيب ولا شنار ، لأن محبتى له لم تكن صادرة إلا عن نية صالحة وطوية طيبة ذكية الرائحة ، ولكن كتب عبد الملك بن مروان يأمر أبى بتزويجى .

فكان الأمر ولكنى سأصبر على ما رقمه القلم وأثبته الله حيث حكم .
فلما سمع زوجها ذلك الخطاب اشتبه من كلامها ووقع فى اضطراب وأخذته الغيرة وداخله الشك والارتياب ، وتغيرت نيته وتقدم ضميره بالسوء إليها ، ثم انه ذهب إلى أبيها فى الحال وقص عليه ما سمعه منها من المقال : فخجل ذلك الخبيث عند سماعه هذا الحديث ، واضطرب جسمه وارتجف . وقال له لا تخف ، ثم أخذ يلاطفه بالحديث والكلام وأخبره بخبر قيس على التمام وكيف أنه حجبها عنه من سنين وأعوام وأخرج له كتاب عبد الملك بن مروان ، وقال له إن الخليفة يهدر دمه إن عاد واجتمع بها فى مكان وما زال يحدثه بمثل هذا الكلام حتى زالت عنه الشكوك والأوهام ؛ واشتاق إلى رؤية قيس ومنادمته ومال إلى معرفته ، وما زال يترقب الفرص إلى أن خرج ذات يوم إلى الصيد والقنص فالتقى به وهو فى روضة خضراء بالقرب من الصحراء وبقربه قطيع من الغزلان والوعول وهو ينظر إلى ظبية تضع خشفها وهو ينشد ويقول :

لقد هرقتنى أم خشف وأنها إذا صرع القوم الكرى لطروق

أقام فريق من أناس بودهم بذات الشرى عندى وبات فريق
بحاجة محزون كئيب فؤاده رهين ببيضات الحجال صديق

فتقدم زوج ليلى إليه وسلم عليه وأنشد يقول :

ومن عجب جنونك فى فتاة مزوجة سواك وان تراها
أيا مجنون كم تهذى بليلى كأن الله لم يخلق سواها (١)

(قال الراوى) فصاح قيس من شدة الوجد والوسواس ، وسأل عنه بعض الناس ، فقيل له هو بعل ليلى التى تحبها وترغب قربها ، فخر مغشياً عليه ثم أفاق فأنشد يقول :

بربك هل ضممت إليك ليلى قبيل الصبح أو قبلت فاها
وهل رفت عليك قرون ليلى رفيف الأقحوانة فى نداها (٢)

فضحك زوج ليلى وتبسم ، وقال اللهم إذ حلفتنى فنعم ، فلما سمع قيس منه ذلك المقال اضطرب فؤاده وقبض بكلتا يديه قبضتين من الجمر ، فما فارقهما حتى سقط مغشياً عليه ، وسقط الجمر مع لحم راحتيه ، وعض على شفتيه فقطعها فقام زوج ليلى مغموما متعجباً منه .

(قال الراوى) وقد تكدر زوج ليلى وتشوش خاطره وتعكر ، وقال له احذر يا قيس من غفلات الزمان وسطوات الأعوان فإن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد يهدر دمك مرة ثانية إن كنت لا تنتهى عن ذكر هذه الجارية لأنك فضحتها فى الأشعار ، وهتكتها فى سائر الأقطار ، وقد أعلمتك بحقيقة الخبر فكن من ذلك على حذر . فزاد بقيس القلق والضجر وفاض دمعه على خديه وانحدر ، وقال له والله إنه منذ ثلاثة أيام بينما كنت أطوف فى بعض الآكام رأيت ظبيين وقالا لى وحق الملك الديان لقد

---

(١) هكذا فى الأصل ولم نجدها فى الديوان
(٢) ذكره أبو الفرج فى أغانيه ص ٤ ج ٢

لقد قضى الرحمن بانقضاء أيام عبد الملك بن مروان ثم أطرق مليا وأقام مدة لا يتكلم شيئا ثم أمعن فيه النظر وأجال قداح الفكر، وقال أقسم بجامع الشتات ومخرج النبات، أنها سوف تصلكم الأخبار أنه قد مات، فاندهش زوج ليلى من كلامه وارتد راجعاً الى خيامه، وما مضى أكثر من ثلاثة أيام بعد ذلك الكلام، حتى شاع الخبر بموت عبد الملك فى قبائل العربان فتعجب زوج ليلى من ذلك الاتفاق الغريب والامر العجيب.

(قال الراوى) وكان أبو قيس لا يطيب له عيش ولا يرتاح له بال خوفاً على ولده من الهلاك والوبال. لأنه كان عالماً بالحال الذى هو فيه والشقاء الذى كان يؤلمه ويؤذيه. فخرج فى طلبه ذات يوم مع جماعة من القوم وما زالوا يتطلبون ... مدة ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع التقوا به وهو على الرمال جالساً وقد أطرق برأسه إلى الأرض عابساً، فبكى أبوه وتراءى عليه وقبله بين عينيه وقال له ياولدى ومهجة كبدى إلى متى وأنت فى هذه الحال تقاسى الأهوال والمشقات والإذلال، بعد ذلك الجاه والدلال، فأين عقلك وحسن رأيك وأدبك وذهبت كمالات عاداتك، فقم بنا الآن نرجع الى الأوطان، فإن الذى أنت فيه إنما هو من عمل الشيطان، وزجره ... فقال له يا أبت سامع لأمرك طائع إلا فى هذا الشأن خارج عن حد الإمكان، ثم فاضت عيناه بالدموع وأنشد من فؤاد مصدوع:

الله يعلم أن النفس هالكة　　باليأس منك ولكنى أعنيها
منيتك النفس حتى قد أضر بها　　واستيقنت خلفاً مما أمنيها
وساعة منك ألهوها وإن قصرت　　أشهى إلى من الدنيا وما فيها(١)

قال له أبوه اذكر الله فى نفسك قبل حلول رمسك، فقال قد صدقت وبالحق نطقت وأنشد يقول:

---

(١) ذكرها صاحب الاغانى ص ٨٣ ولم أجدها فى الديوان.

دعوت إلهى دعوة ما جهلتها وربى بما تخفى الصدور بصير
لئن كنت تهدى برد أنيابها العلا لأفقر منى . إننى لفقير
وقد شاعت الأخبار أن قد تزوجت فهل يأتينى بالطلاق بشير

(وقال أيضاً)

ألا تلك ليلى العامرية أصبحت تقطع إلا من ثقيف حبالها
هم حبسوها محبس البدن وابتغى بها المال أقوام ألا قل مالها
إذا التفت والعيس صعر من البرى بنخلة جلت عبرة العين حالها

(وقال أيضاً)

عفا الله عن ليلى وإن سفكت دمى فإنى وإن لم تجزنى غير عاتب
عليها ولا مبد لليلى شكاية وقد يشتكى المشكى إلى كل صاحب
يقولون تب عن ذكر ليلى وحبها وما خلدى عن حب ليلى بتائب

(قال الراوى) ثم إنه تركهم وذهب وهبط فى ذلك البر راهباً وما زال يجول من مكان إلى مكان حتى وصل إلى جبل يقال له ثوبان وكان كثيراً ما يجتمع بليلى فى ذلك المكان ، فلما رآه تذكر أيام الصبا وتجددت عليه الهموم والأحزان وأنشد وقال :

وأجهشت للتوبان حتى رأيته وهلل للرحمن حين رآنى
وأذريت دمع العين لما رأيته ونادى بأعلى صوته ودعانى
فقلت له أين الذين عهدتهم حواليك فى خصب وطيب زمان
فقال مضوا واستودعونى بلادهم ومن ذا الذى يبقى مع الحدثان
وإنى لأبكى اليوم من حذرى غداً فراقك والحيان مؤتلفان
سجالاً وتهتاناً ووبلاً وديمة وسحاً وتسجاماً إلى هملان

ثم إنه بكى من فؤاد مجروح ، وإذا به يسمع صوت حمامة تندب إلفها وتنوح فأنشد :

لقد هتف فى جنح ليلى حمامة ... على فنن وهنا وإنى لنائم
فقلت اعتذاراً عند ذاك وإننى ... لنفسى فيما قد أتيت للائم
أأزعم أنى عاشق ذو صبابة ... بليلى ولا أبكى وتبكى البهائم
كذبت وبيت الله لو كنت عاشقاً ... لما سبقتنى بالبكاء الحمائم

﴿ وقال أيضاً ﴾

أيا جبل الثلج الذى فى ظلاله ... غزالان مكحولان مؤتلفان
غزالان شبا فى نعيم وغبطة ... ورغدة عيش ناعم عطران
أرغتهما ختلا فلم أستطعهما ... ففرا وشيكا بعد ما قتلانى
خليلى أما أم عمرو فمنهما ... وأما عن الأخرى فلا تسلانى
فما صاديات حمن يوماً وليلة ... على الماء دون الورد هن حوان
يرين حباب الماء والموت دونه ... وهن لأصوات السقاة روانى
بأكثر منى حسرة وصبابة ... إليها ولكن الفراق عرانى
خليلى إن ميت و مكبم ... لديى بعجى فاعصيا ودرانى
أقل حاجتى وحدى ويارب حاجة ... قضيت على هول وخوف مكان
وإن أحق الناس منى بتحية ... مشرقاً ها من او يشا تتغنى
ومن قادنى للموت حتى إذا صفت ... مشاربه سم الزعاف سقانى

ثم إنه ترك المكان وقصد الروابى والكثبان وهو يستمع لأشعار حسان يهيم مع الوحوش والغزلان.

واتفق أن رجلا من بنى أسد خرج ذات يوم من البلد طالباً البرارى والقفار وكان ذلك فى عام أشهب أمسكت السماء فيه مطرها والأرض نبتها. فرحل بناقته يركب الصعب والذلول تردده أرض وتحمله أخرى قال الرجل وما زلت أقطع السهول والأوعار حتى صرت فى سفح حديقة رفعت فى روضة معشبة كثيرة الأنوار زاهية والأزهار دعتنى نفسى إلى الإلمام بها وودت أن أقيم فيها وأتنزه فى بعض نواحيها مزات ق

أرجاء تلك الأزاهير المونقة والأنوار البديعة المورقة ، وأنخت ناقتي إلى قنوان شجرة صغيرة وجلست منها ، فبينما أنا كذلك أتأمل في تلك الروضة والمروج الطويلة العريضة إذ سقط رجل من جراد كثير الاعداد على ذلك الواد فافترشت جنباتها وأرضها وأخذت طولها وعرضها . فظلت متعجباً عما أرى .

ثم رميت نظري في نواحيها ، فإذا أنا بشخص أقبل من صدر البرية ناحل الجسم عار من اللحم ، وما على جسده غير شعر منسدل على صدره ، وزغبات على عكنة ، فرأيت منظره ومنظاراً تتبين خوفاً ووجلا وخشيت أن أكون على شرف الهلاك ، وما شككت أنه شيطان مرد فلما دنا مني أنشد يقول :

أرض وإن جاعت بك الأكباد	رحب البنا بك يا جراد
لم يكن منها لنا دتاد	وصاقت الأصدار والأوراد

ولا لابناء السبيل الزاد

فقلت له إنسي أنت أم جني ؟ فأنشأ يقول :

أما ترى الجسم قد أودى به العطب	إليك عني فإني هائم صب

(وقال أيضاً)

فإن جزوع القوم ليس بخالد	فيا قلب مت حزناً ولا تك جازعاً
وكالشمس يسبي دلها كل عابد	هويت فتاة كالغزالة وجهها
ودمع حثيث في الهوى غير جامد	ولي كبد حرى وقلب معذب
ودمع شجى الصب أعدل شاهد	وآية وجد الصب تهطال دمعه
على الآنسات الناعمات الخرائد	على ما انطوى من وجده في ضميره
وهيهات أن الدهر ليس بعائد	فياليت أن الدهر جاد برجعة
فحبك ينمي زائداً غير بائد	اليك فعز النفس واستشعر الأسى

وقد شمت ليلى وشط مزارها وغيرها عن عهدها قول حاسد
فيا أسفا حتى م قلبي معذب إلى الله أشكو طول هذى الشدائد

قال الرجل ثم خر مغشياً عليه ، فبادرت إلى الماء ونضحت على وجهه فأفاق بعد حين ثم تنفس الصعداء فأنشأ يقول :

بلادى لو همت بسطت عذرى إذا ما القلب عاوده نزوع بها الحين المباح لمن بغاه
وجرع للغريب به مريع إلى أهل الكرام تشاق نفسى فهل يوماً إلى وطنى أريع

قال الرجل فتعجبت من شدة عشقه وغرامه ورقة شعره وعذوبة كلامه فقلت له : ويحك يا أخا العرب وسيد أهل الفصاحة والأدب إنى أراك فى عذاب أليم وخطر عظيم وحال سقيم ، ولا شك أن هذا البلاء الذى أنت فيه والعناء الذى أنت تقاسيه ناتج من هواجس رديئة ووساوس شيطانية فبادر الآن واستعمل فكرك الرزين وتب إلى رب العالمين فهو يكشف عنك هذا الداء الدفين لأنه سميع مجيب ، ومن اتكل عليه فلا يخيب . فلما سمع كلامى بكى من عظم جواه حتى تزلزلت أركان أعضائه وأنشد يقول :

يخشون فى ليلى [illegible] [illegible] ليلى حراماً ولا حلا
سوى أن حباً لو يشاء أقاربها [illegible] تبتغى [illegible] لنا [illegible]
ألا حبذا أطلال ليلى على البلى [illegible]
فما يتمادى العهد إلا تجددت مودتها عندى وإن زعمت أن لا

فقلت له : ويحك استشعر الصبر ، واستق مودة الحبيب بكتمان الحب . واعلم أنك لا تصل إلى الحبيب إلا بالستر ونفيك الشنعة . فإن المتهتك يستطع موارد الغبطة ، وليس للمتهتك آفة والمستور طوبى [illegible] الغبطة ، فقال :

لقد هم قيس أن يزج بنفسه ويرمى بها من ذروة الجبل الصعب
فلا غرو أن الحب للمرء قاتل يقلبه ما شاء جنباً إلى جنب
أناخ هوى ليلى به فإذا به ومن ذا يطيق الصبر عن محمل الحب
فيسقيه كأس الموت قبل أوانه ويورده قبل الممات إلى الترب

قال فأقسمت عليه أن ينشدنى أحسن ما قاله فى وصف المحاجر والنهود والأطراف والخدود فأنشد يقول :

[illegible]

لنا أصبو بالعشى وبالضحى إلى خرد ليست بسود ولا عصل
منعمة الأطراف هيف بطونها كواعب تمشى مشية الخيل فى الوحل
وأعناقها أعناق غزلان رملة وأعينها من أعين البقر النجل
وأثلاثها العليا كأن فروعها وأثلاثها الوسطى كثيب من الرمل
وأثلاثها السفلى برادى مناحل عناقيد تغذى بالدهان وبالعسل
وترمى فتصطاد القلوب عيونها وأطرافها ما تحسن الرمى بالنبل
زرعن الهوى فى القلب ثم سقينه صبابات ماء الشوق بالأعين النجل
رعابيب ما صدن القلوب وإنما النبل ريشت بالفتور وبالكحل
فثم دماء العاشقين مطلة بلا قود عند الحسان ولا عقل
ويقتلن أبنــاء الصبابة عنوة أما فى الهوى يارب من حكم عدل

فقلت هل لك من مزيد أيها الشاعر المجيد ؟ فقال نعم وأنشد :

ومفروشة الخدين ورداً مضرجاً إذا جمشته العين عاد بنفسجا
شكوت إليها طول ليلى بعبرة فأبدت لنا بالغنج دراً مفلجا
فقلت لها منى على بقبلة أداوى بها قلبي فقالت تغنجا
بليت بردف لست أسطيع حمله يجاذب أعضائى إذا ما ترجرجا

قال الرجل ثم قطع شعره وذهب وطلب الهزيمة والهرب ، فانذهلت من أمره ونهضت مسرعاً فى أثره طالباً الزياده من شعره ، فلم أدركه إلا بعد الجهد وقد تعلق بجبال نجد فرجعت عنه وقد تعجبت منه .

وحدث رجل آخر من بنى كنانة وهو من أهل الصدق والأمانة ، قال خرجت فى بعض الأسفار أطوى الفيافى والقفار والسهول والأوعار ، فانتهى بى المسير إلى غدير كبير كأنه البحر المستدير فرأيت فى بعض نواحيه جارية كأنها البدر التمام وفى يدها بردة وقصعة مملوءة بالطعام ، فتقدمت إليها وسلمت عليها فردت على السلام بأفصح كلام فبينما أنا أتأمل فيها وأنظر إلى حسن معانيها إذ أقبلت عانة من الغزلان طالبة الماء من ذلك المكان ، وفى أوائلها رجل عريان وهو نحيف الجسم كئيب النفس قد اسود جلده من قمح البرد وحر الشمس فأومأت الجارية إليه وصاحت عليه وأنشدت تقول :

وخبرتمانى أن تيماء منزل لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذى شهور الصيف عنا قد انقضت فما للنوى ترمى بليلى المراميا

فلما سمع كلامها تقدم إليها حتى صار أمامها فألقت نفسها عليه وقبلته وأعطته البردة فأخذها وستر عورته ثم ناولته الطعام، فجلس وأكل وهو يبكى ويتململ، قال الرجل فتعجبت من ذلك غاية العجب، والتفت إلى الجارية وقلت لها يا حرة العرب من يكون هذا الغلام وماذا جرى عليه من الأحكام لأنى أرى صفته غريبة وحالته رديئة كئيبة، فقالت هذا والله يا أخى، شقيق ومهجة فؤادى وكبدى وما كانت هذه الصفة صفته ولا هذه الحالة حالته وإنما كان وحيد عصره ونتيجة دهره، مشكور السيرة طاهر السريرة فصيح الكلام رفيع المقام محبوباً من الخاص والعام، وقد اشتهر بالكرم وعلو الهمم ومكارم الأخلاق والشيم، وانتشر صيته بين العرب والعجم، واتفق أنه عشق جارية فافتتن بها وهام، وتواترت عليه الأسقام من كثرة الحزن وقلة الأكل والمنام، حتى انتحل جسمه واعتراه الجنون ومضى عليه مثل ذلك سنون، وهو يهيم مع الوحوش فى البرارى والهضاب ولا يقر له قرار ولا يلتفت إلى خطاب، إذا ذكرت له زالت عنه الوحشة وعاد عقله إليه وذهبت عن قلبه الرعشة قال الرجل ولما انتهت من كلامها التفت إلى المجنون، وقال أيها الرجل المسافر إلى أين أنت سائر، وإلى أية حلة تقصد من حلل العشائر، فقلت له مرادى أن أسير إلى حى بنى عامر أهل المكارم والمفاخر، قال بالله عليك متى إلى تلك المنازل والأعلام أقرىء ليلى منى كثير السلام، وأعلمها بحالى وما شاهدت من أحوالى وبلغها عنى هذه الأبيات وأنشد يقول:

أرى الناس أما من تجدد وصله فغث وأما من خلا فسمين
تخبرنى الأحلام إنى أراكم فياليت أحلام المنام يقين
شهدت بأنى لم أخنك مودة وإنى بكم حتى الممات ضنين
وإن فؤادى لا يلين إلى هوى سواك وإن قالوا بلى سيلين

ثم وثب قائماً على قدميه وأرخى البردة عن منكبيه وصاح صيحة قوية وذهب مع وحوش البرية، فجعلت أخته تبكى وتلطم خدودها وتعض من

شدة الأسف على زنودها ، وبكيت أيضاً على صباه وعلى ما أصابه ودهاه ثم ودعتها وجديت فى قطع الهضاب حتى وصلت إلى بنى الحريش قبل الغياب ، فقصدت إلى مضرب كبير وقد حدثتنى نفسى أنه بيت الأمير ، فلما دنوت منه وقفت متفكراً وفى هذا الأمر متحيراً . وإذ قد أقبلت على عجوز من ذلك البيت فقالت من أنت ومن أين أنت فقلت إنى رجل غريب أتيت هذه القبيلة لأجل ليلى خليلة المجنون العاشق المفتون وقد حملنى لها سلاماً وشعراً وكلاماً فهل لك أن تدلينى عليها وترشدينى إليها ، فلما سمعت كلامى قالت أبشر ياوجه العرب ببلوغ الأرب ثم إنها غابت وجاءت بجارية بديعة الجمال كأنها الهلال مسربلة بثوب من الحرير الأحمر وفى عنقها عقد من نفيس الجوهر ، يدهش البصر وعيناها تذرف الدموع وهى تبكى من فؤاد موجوع ، فتقدمت إلى وسلمت على ، وقالت لى أيها الصديق قد بلغنى أنك قد لقيت قيساً فى الطريق فحملك كلاماً تقوله لى فأنى هى ليلى المشئومة عليه والمشتاقة إليه . فبالله عليك حدثنى بحديثه وماكان من أمره . فأنشدتها ما سمعت من شعره فصارت تبكى وتلطم خدودها وتعض من الأسف على زنودها ، هذا ، والعجوز تلطف بخاطرها وتضمها إلى صدرها وتقبلها فى وجهها ونحرها ، وقد احتارت فى أمرها ، ثم التفتت إلى بعد حين وتنهدت من قلب حزين . وقالت ياصاحب الهمة العلية وكاشف الغمة والبلية إذا اجتمعت به مرة أخرى فى البرية أهده منى جزيل التحية وأنشده هذه الأبيات :

ألا ليت شعرى والخطوب كثيرة　　متى رحل قيس مستقل فراجع

بنفسى من لا يستقل برحله　　ومن هو إن لم يحفظ الله ضائع

قال ثم إنها أضافتنى وترحمت بى وأكرمتنى فأقمت عندها ثلاثة أيام فى عز وإكرام ثم استأذنت وانصرفت من حيث أتيت وقد تعجبت مما سمعت ورأيت .

(قال الراوى) فكانت ليلى لا تستطعم بطعام ولا تهنأ بمنام بل تقضى ليلها الطويل بالبكاء والعويل ، وتخاصم نفسها بالملامة وتعض على يديها أسفاً وندامة ، حتى زال نشاطها وحال . وتمكن منها المرض والبلبال . وفى كل يوم تزداد عليها الآلام حتى انقطع صوتها عن الكلام ، وشربت كأس الحمام فكفنها

أهلها وواروها التراب وأكثروا عليها الانتحاب ومزقوا ما عليهم من الثياب .

(قال الراوى) فبينما كان يطوف من مكان إلى مكان وهو كثير الهموم والأحزان إذ مر به فارسان فنعياها إليه وقالا قد حكم الله عليها بالموت وهو كأس ليس لأحد منه فوت ، لم يسلم منه ملك شديد ولا جبار عنيد ، فعز نفسك الآن وتب إلى العزيز الرحمن ، واستقبل الأحكام بالرضى واستسلم لموارد القضا وقابل عوارض المحن والضير بما قاله كعب بن زهير :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوماً على آلة حدباء محمول

قال فلما سمع منهما ذلك الخطاب أظهر الاكتئاب واستعظم المصاب ، وأخذته الرعدة والاضطراب وغلب عن الصواب وعلا زفيره وشهيقه حتى رق له عدوه وصديقه وأنشد يقول :

أيا ناعي ليلى بجانب هضبة   أما كان ينعاها إلى سواكا   ويا ناعي ليلى بجانب هضبة
ن بعد ليلى لا أمرت قواكا   ويا ناعي ليلى لقد هجتما لنا   تباريح نوح فى الديار كلاكما
فلا عشتما إلا حليفي مصيبة   ولا متما حتى يطول بلاكما   وأسلمت الأيام فيها عجائباً
و تسكما أنى أحب رداكما   أظنكما لا تعلمان مصيبتى   لقد حل بين الوصل فيما أراكما

ثم مضى حتى دخل الحى وهو فى غم شديد وحزن ما عليه من مزيد بعد أن كان لا يمر به إلا من بعيد فأتى أهل بيتها فعزاهم وعزوه ، فقال دلونى على قبرها فدلوه ، فلما رآه عظم مصابه ورمى بنفسه عليه . والتزمه من شدة عشقه وجواه وضمه إلى صدره وقد حار فى أمره وأنشأ يقول :

أيا قبر ليلى لو شهدناك أعولت   عليك نساء من فصيح ومن عجم
ويا قبر ليلى أكرمن محلها   يكن لك ما عشنا علينا به [illegible]
ويا قبر ليلى إن ليلى غريبة   بأرضك لا خال لديها ولا عم
ويا قبر ليلى ما تضمنت قبلها   شبيهاً لليلى ذا عفاف وذا كرم
ويا قبر ليلى غابت اليوم أمها   وخالتها [illegible]

قال : ثم إنه كان يأتى إلى قبر ليلى ويدور نهاره وليله [illegible] حتى جف جلده على عظمه ، وضعفت قوته واشتدت بليته . ثم إن رجلا [illegible] أحب [illegible] فانظر إليه [illegible] ناحية [illegible] ، قال الراوى خرجت

أطلبه فى البرارى بعد أن أرشدنى أهله عليه وقد أفهمونى بأن أنشده بعض شعر قيس بن ذريح وذلك ذريعة الدنو منه إلى أن لقيته قاعداً يلعب بالتراب ، فسلمت عليه وجلست منه بمكان قريب ورد على السلام فقلت له ياصاحب الوجه المليح والكلام الفصيح ما أحسن قول قيس بن ذريح حيث يقول :

وأنى لمفن دمع عينى بالبكا حذاراً لما قد كان أو هو كائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتى بكفى إلا أن ما حان حائن
وقالوا غداً أو بعد ذاك بلية فراق حبيب بان أو هو بائن

قال : فبكى بكاء شديدا وسالت دموعه على خده وأنشأ يقول :

لصفراء فى قلبى من الحب شعبة هوى لم ترمه الغانيات صميم
به حل بيت الحب ثم انثنى به فزالت بيوت الحى وهو مقيم
ومن يتهض حبهن فؤاده يمت ويعش ما عاش وهو سقيم
فخران صادان يذد عن مشرب وعن بللات الماء وهو يحوم
بكت دارهم من نأيهم فتهللت دموعى فأى الجازعين ألوم
أهذا الذى يبكى من الهون والبلا أم آخر يبكى شجوه ويهيم
إلى الله أشكو حب ليلى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم
[illegible] الأقربون فجسمه [illegible] وفقد الوالدين عظيم
[illegible] قد أجن [illegible]
[illegible] كما [illegible]
[illegible] فى طول الزمان [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] ما لهن [illegible]
[illegible] أخى اليأس [illegible]

ومنيني حتى إذا ما رايتني　　على شرف للناظرين قريب
صددت وأشمت العداة بهجرنا　　أثابك فيما تصنعين مثيب
أبعد عنك النفس والنفس صبة　　بذكرك والممشى إليك قريب
مخافة أن تسعى الوشاة مظنة　　وأكرمكم أن يستريب مريب
أما والذى يبلو السرائر كلها　　ويعلم ما تبدى به وتغيب
لقد كنت ممن تصطفى النفس خلة　　لها دون خلان الصفاء حجوب
وأنى لأستحييك حتى كأنما　　على بظهر الغيب منك رقيب
تلجين حتى يذهب اليأس بالهوى　　وحتى تكاد النفس عنك تطيب
سأستعطف الأيام فيك لعلها　　بيوم سرورى فى هواك تثوب
(وقال) ألا هل طلوع الشمس يهدى تحية　　إلى آل ليلى أو دنو غروبها
اتضرب ليلى إن مررت بذى الغضى　　وما ذنب ليلى إن طوى الأرض ذيبها
أحل على الرجم إن قلت حبذا　　غروب ثنايا أم عمرو وطيبها .
(وقال) فياليت ليلى وافقت كل حجة　　قضاه على ليلى وإنى رفيقها
فتجمعنا من نخلتين ثنية　　يعض بأعضاد المطى طريقها
فألقاك عند الركن أو جانب الصفا　　ويشغل عنا أهل مكة سوقها
فأنشدها أن تحوى لهون والهوى　　وتمنح نفساً طال مطلا حقوقها

وزاره الأعرابى ثانية بعد انصرافه إلى الحى وقد حدثهم بحديث قيس وما أنشده من شعره فوجده على كثيب من الرمال وهو يخط بأصبعه فيه ، فدنا وسلم عليه وقال : أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول :

...راكبدى وعاودنى رواعى　　وكان فراقلنى كالخداع　　تكنفنى الوشاة فأزعجونى
...يالله للواشى المطاع　　وأصبحت الغداة ألوم نفسى　　على شىء وليس بمستطاع
كمغبون يعض على يديه　　تبين غبنه بعد البياع
إذا ما تذكرين تحن نفسى　　حنين الإلف يضرب للسماع

قال المجنون : بلى والله واستعبر حيناً ثم قال : أنا أشعر منه حيث أقول :

ألا يا نسيم الريح حكمك جائر　　على إذا أرضيتنى ورضيت
ألا يا نسيم الريح لو أن واحداً　　من الناس يبليه الهوى لبليت

فلو خلط السم الزعاف بريقها ... تمصصت منه نهلة ورويت

ثم قال إن لم أكن أشعر منه فى هذا فأنا أشعر منه حيث أقول :

وعارضن بالعقيان مفلج ... به الظلم لم تقل لهن غروب

رضاب كريح المسك يحلو متونه ... من الضمر أو فرخ البشام قضيب

ثم غشى عليه ، فلما أفاق قال أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول :

هبونى امرأ أن تحسنوا فهو شاكر ... لذاك وإن لم تحسنوا فهو صافح

فإن يك أقوام أشاروا بقتلها ... فإن الذى بينى وبينك فاضح

فقال أنا شعر منه حيث أقول :

وأدنيتنى حتى إذا ما فتنتنى ... بقول يحل العصم سهل الأباطح

تجافيت عنى حين لا لى حيلة ... وغادرت ما غادرت بين الجوانح

قال الأعرابى : فلما أتم هذه الأبيات ظهرت له ظبية فتعلق قلبه بها ووثب مسرعاً فى طلبها والتفت إلى وقال : السلام عليك فما أراك ترانى بعد هذا أبداً . قال الهلالى : ثم رجعت إلى الحى وقد احترق قلبى بكى ، فأنشدتهم ما سمعته من شعره فكتبوه وأخبروه ما كان من أمره ، فلما كان من الغد بكرت وطلبته وفتشت عليه فلم أقف له على أثر ، فأخذنى القلق والضجر فانصرفت إلى الحى ، حيث أهله وأعلمتهم بالخبر . فقام إخوته ومن يلوذ من أهله وأقاربه فطلبناه يومنا وليلتنا فى القفار والسهول والأوعار ، فلما أصبحنا هبطنا إلى واد كثير الحجارة والرمل ، وإذا نحن به ملقى ميتاً ، بين حجرين وقد كان خط بأصبعه عند رأسه هذين البيتين :

توسد أحجار المهامه والقفر ... ومات جريح القلب مندمل الصدر

فياليت هذا الحب يعشق مرة ... فيعلم ما يلقى المحب من الهجر

فرثيناه وعلت أصواتنا بالبكاء والنحيب وحملناه إلى الحى فبكى عليه الغريب والقريب وكل صاحب وصديق ومن سمع باسمه يوماً ، وتأسف أبو ليلى عليه وندم على عدم زواجه بليلى غاية الندم وقال والله لقد قابلته بالاستخفاف وعاملته بغير الحق والانصاف ، ثم تقدم إليه وضمه إلى صدره وبكى عليه وبعد ذلك غسلناه وكفناه ودفناه إلى جانب قبر ليلى ، رحمهما الله تعالى . وكان ذلك فى السنة الثمانين من الهجرة المحمدية الموافقة سبعمائة مسيحية ـــ